د. حليم خليف الكاني

مختصر
تاريخ الدولة الأمويَّة
في الأندلس




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سلسلة تاريخ الأندلس (٢)

مختصر تاريخ
الدولة الأموية في الأندلس

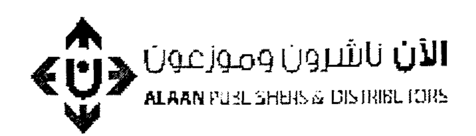
مختصر تاريخ الدولة الأموية في الأندلس

الدكتور حليم خليف الكاني

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الأردنية (٢٠١٧/١٠/٥٣٤٠)

ISBN 978-9957-698-47-8

الطبعة الأولى ٢٠١٨



المدير العام: جعفر العقيلي

ش. الملكة رانيا، عمارة البيجاوي ط ٣، بجانب صحيفة «الرأي»

نقال: ٧٧٦٧٢٤٣٦٦ - ٧٩٧١٦٢٧٢٠ (٠٠٩٦٢)،

تلفاكس ٦٥٦٢٠٧٢٢ (٠٠٩٦٢) ص.ب ٧١٣٦٨٠ عمّان ١١١٧١ الأردن

alaan.publish@gmail.com



مختصر تاريخ

الدولة الأموية في الأندلس

إعداد وتحرير

الدكتور حليم خليف الكاني



مقدمة عامة

كانت الأندلس منذ الفتح الإسلامي مجرد ولاية تابعة لولاية إفريقية إحدى ولايات للدولة الأموية في دمشق. وبعد سقوط الدولة الأموية على أيدي العباسيين عام ١٣٢ هـ، دأب العباسيون على ملاحقة الأمويين واستئصالهم في كافة أرجاء دولتهم. مما جعل الأشخاص الباقون من بني أمية يحرصون على التخفي أو الفرار من أمام العباسيين. كان من بين الفارين من قهر العباسيين، الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي اختار الفرار إلى إفريقية عند أخواله من بربر نفزة. كانت الأندلس في تلك الفترة قد مرت بفترات من الصراعات الداخلية بين القبائل العربية. استغل عبد الرحمن بن معاوية الأحداث الداخلية في الأندلس، بدأ في مراسلة أتباع وموالي الأمويين في الأندلس عن طريق مولى له اسمه بدر.

نجحت المراسلات بين عبد الرحمن بن معاوية وموالي الأمويين في الأندلس في التمهيد لعبوره إلى الأندلس الذي تم في ربيع الآخر ١٣٨ هـ. استطاع موالي الأمويين أن يجمعوا قوات مؤيدة لعبد الرحمن تمكنوا بها هزيمة آخر ولاة الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري في موقعة المصارة في ذي الحجة ١٣٨ هـ، ليدخل بذلك عبد الرحمن بن معاوية قرطبة عاصمة الأندلس، مؤسسًا بذلك إمارة أموية مستقلة في الأندلس. قضى عبد الرحمن الداخل سنوات حكمه في تثبيت أركان دولته، والقضاء على الثورات الداخلية التي اندلعت في كافة أرجاء الأندلس، ليترك الأندلس لخلفائه من بعده ولاية مستقرة. ورغم ذلك، ظلت الدولة الأموية في الأندلس معظم فترتها تحارب الخارجين على سلطتها سواء من المولدين أو البربر أو المستعربين أو العرب أنفسهم. بل واستطاعت بعض الأسر والأفراد أن تؤسس إماراتهم شبه المستقلة التي كانت لا تخضع لسلطة الدولة إلا بالاسم في فترات ضعف دولة الأمويين خاصة في المناطق الشمالية التي كانت بعيدة نوعًا ما عن

قرطبة. كان من أبرز هذه الكيانات المستقلة بنو قسي وبنو تجيب ومحمد بن عبد الملك الطويل وعبد الرحمن بن مروان الجليقي في الشمال، وعمر بن حفصون في الجنوب.

إلا أنه ومنذ إمارة عبد الرحمن بن محمد عام ٣٠٠ هـ، استطاعت الدولة الأموية في الأندلس أن تستعيد هيبتها، وتسيطر على كافة أرجاء الدولة تحت السلطة المركزية في قرطبة. بل وامتدت سلطة الأمويين إلى أجزاء من شمال المغرب الأقصى الذي تسابق أمرائه في الدخول في ولاء الأمويين. وأمام خطر نشأة الدولة الفاطمية فيإفريقية، أعلن عبد الرحمن بن محمد نفسه خليفة على الأندلس، وتلقب بالناصر لدين الله. واستمرت الدولة على قوتها في عهد خليفته الحكم المستنصر بالله حتى وفاته عام ٣٦٦ هـ.

أخطأ الحكم المستنصر بالله، في اختياره ابنه الوحيد الطفل هشام المؤيد بالله لولاية عهده الذي استغل بعض رجال الدولة كالحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وصاحب الشرطة محمد بن أبي عامر صغر سنه وعدم قدرته على الحكم في سنه الصغيرة، وفرضوا على الخلافة وصاية أم الخليفة صبح البشكنجية، واستأثروا هم بكل السلطات. ثم ما لبث محمد بن أبي عامر أن تخلص من كل شركائه في الحكم الواحد تلو الآخر وحجر على الخليفة الطفل، واستأثر بالسلطة منفردًا، لتبقى بذلك السلطة الإسمية فقط للخليفة، والحكم الفعلي لرجل الدولة القوي محمد بن أبي عامر الذي تلقب بعد ذلك بالحاجب المنصور.

استطاع الحاجب المنصور أن يؤسس دولة داخل الدولة حتى أن بعض المؤرخين سماها الدولة العامرية. استمرت سيطرة العامريين على مقاليد الحكم طوال عهد الخليفة هشام المؤيد بالله، حيث خلف الحاجب المظفر أباه المنصور عام ٣٩٢ هـ في كافة سلطاته ومناصبه، ثم خلفه أخاه شنجول بعد وفاته عام ٣٩٩ هـ. تمادى شنجول في أطماعه، فلم يمض شهر من حكمه، حتى أجبر الخليفة المؤيد بالله على إعلان ولاية عهده لشنجول.

أثار ذلك حنق الأمويين في الأندلس بعد أن رأوا في ذلك اغتصاب لحقهم في حكم الأندلس، واستطاع أحد أمرائهم يدعى بمحمد بن هشام أن يدير انقلابًا في جمادى الأولى ٣٩٩ هـ على حكم المؤيد وشنجول، ويطيح بهما من سدة الحكم، ويعلن نفسه الخليفة الجديد. حرص المهدي بالله على التنكيل بالعامريين والبربر الذين كانوا عماد جيش الحاجب المنصور، مما دعا الفتيان العامريين إلى الفرار إلى شرق الأندلس، وتأسيس إمارة في تلك الأرجاء، بينما التف البربر حول أمير أموي آخر يدعى بسليمان بن الحكم الذي ثار على المهدي بالله، ونجح في اقتلاعه من منصبه وإعلان نفسه خليفة في ربيع الأول ٤٠٠ هـ، لتدخل الأندلس فترة من القلاقل تصارع فيها الأمويين والبربر والحموديين على حكم الأندلس، واستمرت حتى عام ٤٢٢ هـ حيث سقطت الدولة الأموية في الأندلس نهائيًا، وتفتت إلى دويلات صغيرة عُرفت تاريخيًا بدول الطوائف.

شجع نجاح عبد الرحمن الداخل في تأسيس دولته الناجين من الأمويين على الهجرة إلى الأندلس. فوفد عليه في الأندلس جملة من الأمويين منهم أخيه الوليد بن معاوية وابنه المغيرة، وابن أخيه عبيد الله بن أبان بن معاوية وابن عمه عبد السلام بن يزيد بن هشام وعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن بشر بن مروان وحبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك وعبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم عام ١٤٠ هـ وجزي بن عبد العزيز بن مروان بعائلاتهم.

ولم يقتصر توافد الأمويين على الأندلس على عصر عبد الرحمن الداخل، فقد ذكر ابن حيان في كتابه «المقتبس من أنباء أهل الأندلس» أن بكار بن عبد الواحد بن داود بن سليمان بن عبد الملك وابني أخيه سلمة ومسلمة ابني عبد الملك، وأصبغ بن محمد بن هشام بن محمد بن سعيد بن عبد الملك بن مروان قد وفدوا على الأندلس في عهد عبد الرحمن بن الحكم، وعبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن محمد بن الوليد بن سليمان

بن عبد الملك بن عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك الذي وفد على الحكم المستنصر بالله نحو عام ٣٦٠ هـ، وغيرهم كثير.

كان للأمويين الوافدين على الأندلس دورهم السياسي في الأندلس، فقد اعتمد الأمراء على بعض قرابتهم من الأمويين في المناصب الإدارية والعسكرية والقضائية منذ نشأة الدولة الأموية في الأندلس. كما ساهموا في كافة الجوانب الاجتماعية الأخرى في الأندلس.

الفصل الأول

الدولة الأموية في الأندلس

الدولة الأموية في الأندلس

تأسيس الدولة

الدولة الأموية في الأندلس إمارة إسلامية أسسها عبد الرحمن الداخل عام ١٣٨ هـ/ ٧٥٦ م في الأندلس وأجزاء من شمال أفريقيا وكانت عاصمتها قرطبة، وتحولت إلى خلافة بإعلان عبد الرحمن الناصر لدين الله نفسه في ذي الحجة ٣١٦ هـ/ يناير ٩٢٩م **خليفة قرطبة** بدلاً من لقبه السابق **أمير قرطبة**، وهو اللقب الذي حمله الأمراء الأمويون منذ أن استقلّ عبد الرحمن الداخل بالأندلس.

تميزت الدولة الأموية في الأندلس بنشاط تجاري وثقافي وعمراني ملحوظ، حتى أصبحت قرطبة أكثر مدن العالم اتساعًا بحلول عام ٣٢٣ هـ/ ٩٣٥م، كما شهدت تشييد الكثير من روائع العمارة الإسلامية في الأندلس ومنها الجامع الكبير في قرطبة. كما شهدت فترة حكم الأمويين نهضة في التعليم العام، جعلت عامة الشعب يجيدون القراءة والكتابة في الوقت الذي كان فيه علية القوم في أوروبا لا يستطيعون ذلك.

وقد استمرت الدولة الأموية في الأندلس رسميًا حتى عام ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م، حيث سقطت الخلافة وتفككت إلى عدد من الممالك بعد حرب أهلية بين الأمراء الأمويين الذين تنازعوا الخلافة فيما بينهم، مما أدى بعد سنوات من الاقتتال، إلى تفكك الخلافة إلى عدد من الممالك المستقلة.

نجح المسلمون في مدّ دولتهم إلى الأندلس، عندما عبر طارق بن زياد أحد قادة موسى بن نصير والي الأمويين على إفريقية عام ٩٢ هـ بجيش قوامه سبعة آلاف مقاتل،واستطاع هذا الجيش بعد أن أمده موسى بن نصير بخمسة آلاف أخرى أن يهزم ملك القوط الغربيين رودريك في معركة وادي لكة والسيطرة في غضون عامين على معظم شبه الجزيرة الأيبيرية، تحولت جيوش المسلمين شرقًا وتوغلت في بلاد الغال حتى وصلت إلى حدود مدينة ليون الحالية. استمرت محاولات المسلمين في التوسع في بلاد الغال في عهد

الولاة السمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي وعبد الرحمن الغافقي، إلا أن تلك المحاولات حققت بعض النجاحات، ثم توقفت التوسعات بعد هزيمة المسلمين فيمعركة بلاط الشهداء. ظلت الأندلس منذ الفتح مجرد ولاية تابعة لولاية إفريقية إحدى ولايات للدولة الأموية في دمشق حتى سقطت الدولة الأموية على أيدي العباسيين عام ١٣٢ هـ. حرص العباسيون على ملاحقة الأمويين وتقتيلهم في كافة أرجاء دولتهم، مما جعل الأشخاص الباقون من بني أمية يتخفون أو يفرون من العباسيين. كان من بين الفارين أمير أموي يدعى بعبد الرحمن بن معاوية بن هشام فر إلى إفريقية عند أخواله من بربر نفزة. كان الأندلس في تلك الفترة تسوده حالة من عدم الاستقرار شهدت تعاقب الولاة والصراعات بين العرب المضرية والعرب اليمانية من جهة وبين العرب والبربر من جهة أخرى.

استغل عبد الرحمن بن معاوية الأحداث الداخلية في الأندلس، بدأ في مراسلة أتباع وموالي الأمويين في الأندلس عن طريق مولاه بدر. نجحت المراسلات بين عبد الرحمن بن معاوية وموالي الأمويين في الأندلس في التمهيد لدخول عبد الرحمن إلى الأندلس، كما نجحوا في في استمالة بربر الأندلس واليمانيين إلى جانب عبد الرحمن، الذي عبر إليثغر المنكب في ربيع الآخر ١٣٨ هـ. وبعد شهور من تمكن جيش عبد الرحمن من هزيمة آخر ولاة الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري في موقعة المصارة في ذي الحجة ١٣٨ هـ، ليدخل بذلك عبد الرحمن بن معاوية قرطبة، لتتأسس بذلك إمارته المستقلة في الأندلس.

قضى عبد الرحمن الداخل سنوات حكمه في تثبيت أركان دولته، والقضاء على الثورات الداخلية التي اندلعت في كافة أرجاء الأندلس، كما عمل عبد الرحمن الداخل على تأسيس جيش قوي والاهتمام بالتعمير والتعليم والقضاء، ليترك الأندلس لخلفائه من بعده ولاية مستقرة. بعد وفاة عبد الرحمن الداخل، نجح ابنه هشام الرضا وحفيده الحكم

الربضي في الحفاظ على وحدة أراضي الدولة، ونجحا في التصدي لمحاولات الممالك المسيحية في الشمال للتوسع جنوبًا. ورغم ذلك النجاح الخارجي على الصعيد العسكري، إلا أن الدولة كادت أن تسقط إثر ثورة بعض أهل قرطبة على الحكم بن هشام، إلا أنه نجح في القضاء على تلك الثورة الداخلية. نتج عن حالة الاستقرار السياسي، أن ازدهرت حركات الآداب والعلوم والعمارة والفن في الأندلس في عهد عبد الرحمن بن الحكم لتبلغ الأندلس في عهده مرحلة متقدمة من المدنية، وأصبحت مركزًا حضاريًا كبيرًا في غرب العالم الإسلامي. تطورت الدولة أيضًا عسكريًا، فنجحت في التصدي لمحاولات النورمان لغزو موانيء الأندلس بحرًا عام ٢٣٠ هـ.

كبوة الدولة

تلى تلك المرحلة مرحلة من الاضطراب في عهد محمد بن عبد الرحمن وولديه المنذر وعبد الله نتجت عن ذلك تعرض الإمارة إلى عدد من الثورات الداخلية من المولدينوالمستعربين والبربر وبعض القبائل العربية، والتي نجحت في تأسيس إماراتهم شبه المستقلة التي كانت لا تخضع لسلطة الدولة إلا بالاسم بنو قسي وبنو تجيب ومحمد بن عبد الملك الطويل وعبد الرحمن بن مروان الجليقي في الشمال، وأخطرهم عمر بن حفصون الذي تمرد على الدولة في الجنوب. إضافة إلى الهجمات الخارجية من النورمان والممالك المسيحية في الشمال في محاولة استعادة الأراضي التي دخلت تحت الحكم الإسلامي. وفي ظل حالة التمرد الداخلية والهجمات الخارجية ضعفت سلطة الدولة على أراضيها حتى انحسرت سلطة الأمير عبد الله بن محمد فقط على قرطبة وأحوازها.

عصر القوة

مع تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد الحكم عام ٣٠٠ هـ، استعادت البلاد وحدتها السياسية وقوتها العسكرية وهيبتها، بعد أن خاض حروبًا طويلة استطاع من خلالها استعادة السيطرة على البلاد تحت السلطة المركزية في قرطبة. بل وامتدت سلطة الأمويين إلى أجزاء من شمال المغرب الأقصى الذي تسابق أمرائه في الدخول في ولاء الأمويين. وأمام خطر نشأة الدولة الفاطمية في شمال إفريقية، أعلن عبد الرحمن بن محمد في عام ٣١٦ هـ / ٩٢٩ م نفسه خليفة على الأندلس، وتلقب بالناصر لدين الله، ليقوي مركزه الديني في مواجهة الدولة الفاطمية في شمال إفريقية. ولمواجهة هذا الخطر حصّن الناصر الموانئ الجنوبية للأندلس، وضم موانئ المغرب المواجهة للأندلس في مليلة وسبتة وطنجة، إضافة إلى دعم البربر المعادين للفاطميين في المغرب ماديًا وعسكريًا، وفي الوقت نفسه، استطاع عبد الرحمن الناصر لدين الله التصدي لأطماع الممالك المسيحية في الشمال.

عرفت البلاد أوجها الثقافي في عهد ابنه الحكم الذي واصل سياسات أبيه، وكان عهده عهد ثقافة وعمران. إلا أن الحكم المستنصر بالله أخطأ حين اختار ابنه الوحيد الطفلهشام المؤيد بالله لولاية عهده الذي استغل بعض رجال الدولة كالحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وصاحب الشرطة محمد بن أبي عامر صغر سنه وعدم قدرته على الحكم في سنه الصغيرة، وفرضوا على الخلافة وصاية أم الخليفة صبح البشكنجية، واستأثروا هم بكل السلطات. ثم انفرد محمد بن أبي عامر بكل السلطات بعد أن تخلص من كل شركائه في الحكم الواحد تلو الآخر وحجر على الخليفة الطفل، لتبقى بذلك السلطة الإسمية فقط للخليفة، والحكم الفعلي لابن أبي عامر الذي تلقب بعد ذلك بالحاجب المنصور.

استطاع الحاجب المنصور أن يؤسس دولة داخل الدولة حتى أن بعض المؤرخين سماها **الدولة العامرية**. تميزت تلك الفترة بوجود تطور اجتماعي جديد بسيطرة البربر على المناصب القيادية في الجيش وكثرة عددهم واختفاء القيادة العربية من الجيوش. استمرت

سيطرة العامريين على الحكم طوال عهد الخليفة هشام المؤيد بالله، حيث خلف الحاجب المظفر أباه المنصور عام ٣٩٢ هـ في كافة سلطاته ومناصبه، ثم خلفه أخاه شنجول بعد وفاته عام ٣٩٩ هـ، الذي لم يمض شهر على توليه الحجابة، حتى أجبر الخليفة على إعلانه ولاية العهد لشنجول.

نهاية الدولة

أثار ذلك حنق الأمويين في الأندلس بعد أن رأوا في ذلك اغتصاب لحقهم في حكم الأندلس، واستطاع أحد أمرائهم يدعى بمحمد بن هشام أن يدير انقلابًا في جمادى الأولى ٣٩٩ هـ على حكم المؤيد وشنجول، ويطيح بهما من سدة الحكم، ويعلن نفسه الخليفة الجديد. حرص المهدي بالله على التنكيل بالعامريين والبربر الذين كانوا عماد جيش الحاجب المنصور، مما دعا الفتيان العامريين إلى الفرار إلى شرق الأندلس، وتأسيس إمارة في تلك الأرجاء، بينما التف البربر حول أمير أموي آخر يدعى بسليمان بن الحكم الذي ثار على المهدي بالله، ونجح في اقتلاعه من منصبه وإعلان نفسه خليفة في ربيع الأول ٤٠٠ هـ، لتدخل الأندلس فترة من القلاقل تصارع فيها الأمويين والبربر والحموديين على حكم الأندلس، التي استمرت حتى عام ٤٢٢ هـ حيث سقطت الدولة الأموية في الأندلس نهائيًا، وتفتت إلى دويلات صغيرة عُرفت تاريخيًا بدول الطوائف.

نظام الحكم

كان الأمير أو الخليفة يأتي على رأس النظام الحاكم في عهد الدولة الأموية في الأندلس، والذي كان يتولى الحكم وفق نظام حكم وراثي يتولى فيه ولي العهد الحكم بوصية من الأمير أو الخليفة الراحل. لم تكن البيعة مشترطة على أن تكون للابن الأكبر حيث كان الأمراء يوصون من يرون أنه الأصلح من أبنائهم للحكم كتولية عبد الرحمن الداخل

لابنههشام متجاوزًا ابنه الأكبر سليمان، وتقديم الحكم الربضي لابنه عبد الرحمن على ابنه الأكبر هشام. بل وكانوا أحيانًا يتجاوزونها للتوصية بولاية الحفيد كما فعل الأمير عبد الله بن محمد بالتوصية لولاية حفيده عبد الرحمن بن محمد.

كانت البيعة تتم في القصر حيث يجلس الحاكم على سرير الملك، ويدخل عليه الأمراء من بني أمية، ويستمعون لكتاب البيعة، ثم يتقدمون ببيعتهم للحاكم الجديد. يتبع أمراء بني أمية، بيعة الوزراء وأصحاب المناصب من كبار رجال الدولة، وتسمى المراسم السابقة بالبيعة الخاصة. ثم ينيب الحاكم من يأخذ البيعة العامة من سائر الناس، ويرسل بكتاب البيعة للكور والثغور.

كانت سلطة الأمير أو الخليفة مطلقة يولّي ويعزل دون أن يعارضه معترض، ويأتي من بعد الأمير أو الخليفة في هرم السلطة «الحاجب» وهو شخص يعادل منصبه منصب رئيس الوزراء اليوم، ويفرش له فراش أعلى من فرش الوزراء وأدنى من سرير الأمير أو الخليفة في قاعة الحكم.

إضافة إلى عدد من الوزراء، يتولون عددًا من المناصب الوزارية كمنصب كبير الخاص وأصحاب خطط الخيل والكتابة العليا والمظالم والشئون المالية والشرطة العليا والشرطة الصغرى وخطة القضاء والمواريث والحسبة. أما إداريًا، فقد كانت الأندلس مقسمة إلى مجموعة من الكور التي تتبعها مدن لكل منها أحوازها، ويتولى إدارة تلك الكور عمال يعينهم الأمير أو الخليفة، ويتبع هؤلاء عمال المدن الذين تقع على عواتقهم مسئولية إدارة المدن وأحوازها.

العلاقات الخارجية

منذ نشأة الدولة الأموية في الأندلس وهي في حالة صراع متواصل مع جيرانها من الممالك المسيحية في الشمال والشرق من أجل فرض السيطرة أحيانًا وأحيانًا من أجل

البقاء. ففي سنوات الدولة الأموية في الأندلس الأولى، تعرض الثغر الأعلى للغزو من قبل شارلمان عام ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م، إلا أن أهل سرقسطة استطاعوا إفشال هجومه ثم ما لبث أن تعرض جيش شارلمان لهزيمة ساحقة أثناء انسحابه إلى فرنسا عبر ممر رونسفال. لم يكن ذلك هو التهديد الوحيد الذي تعرضت له الأندلس في تلك الفترة، فمنذ عهد هشام الرضا تعرضت حدود الأندلس الشمالية لتحرشات من قبل مملكتي أستورياس ونافارا الوليدتين.

إضافة إلى تلك الهجمات البرية، تعرضت الأندلس للغزو البحري عام ٢٣٠ هـ من قبل للنورمان الذين احتلوا أشبونة وقادس وشذونة وإشبيلية، إلى أن هزمهم جيش أرسله عبد الرحمن الأوسط بقيادة عيسى بن شهيد ونصر الخصي، فأجلوهم عن الأندلس بعد ٤٢ يومًا من نزولهم الأندلس.

ومع دخول الأندلس عصر القوة منذ عهد عبد الرحمن الناصر وحتى عهد سيطرة الحاجب المظفر على الدولة، أصبحت اليد العليا عسكريًا في شبه الجزيرة الأيبيرية للأمويين الذين نجحوا في عهد سيطرة الحاجب المنصور في إعادة حدود الدولة الأموية إلى ما وراء نهر دويرة، وهي الأراضي التي كان الأمويون قد فقدوها في فترة كبوة الدولة التي انشغل فيها الأمراء بمواجهة الثورات الداخلية. ورغم ذلك سرعان ما انهارت تلك السيطرة بعد أن دخلت الأندلس فترة الفتنة التي استغلتها الممالك المسيحية في الشمال للتوسع على حساب الأمويين، بل وسلّم بعضهم بعض الحصون والأراضي طواعية للأمراء المسيحيين ثمنًا لمشاركتهم إلى جانبهم في تلك المرحلة من الاقتتال الداخلي.

أجبرت تلك الحالة من التهديد الدائم لحدود الدولة الأمويين على الاهتمام بالناحية العسكرية. فقد حرص الأمراء منذ عهد عبد الرحمن الداخل على التخلص من غلبة النظام القبلي على تركيبة الجيش الأندلسي، فحرصوا اقتناء العبيد الصقالبةوالاستكثار منهم، فقد ذكر المقري أن حرس الأمير الحكم الربضي الخاص بلغ خمسة آلاف صقلبي، وقد

شكلوا هؤلاء الجند الصقالبة نواة الجيش الأموي النظامي. إلا أن هؤلاء الصقالبة مع مرور الزمن أصبح لهم قوتهم داخل البلاط وأصبحوا يتدخلون في شئون الدولة، مما دعا الحاجب المنصور حين أصبحت السلطة بيده أن يقصيهم تدريجيًا من المناصب مع استبدالهم بعناصر من البربر ويضيفهم إلى ديوان الجند النظاميين، هذا بالإضافة إلى المرتزقة والعبيد السود. استدعت تلك الحالة أيضًا الاهتمام بالتسليح، فأنشأوا قواعد بناء السفن في طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وإشبيلية. واهتموا ببناء الحصون والأسوار. ونشطت الصناعات الحربية التي تُمدّ جيشه بالأسلحة حتى ذاع صيت بعض المدن كطليطلة كمراكز لصناعة الأسلحة.

شهدت فترات القوة في عهد الدولة الأموية في الأندلس حركة رواج دبلوماسي بين الأندلس وبعض جيرانها، بل وعدد من القوى العظمى في تلك الفترة التي حرصت على خطب ود حكام الأندلس في تلك الفترة. فبعد أن فشل شارلمان في غزوه لشرق الأندلس، انعقدت معاهدة سلام وصداقة بين عبد الرحمن الداخل وشارلمان. وفي عام ٢٢٥ هـ، استقبل بلاط الأمير عبد الرحمن الأوسط سفارة أرسلها الإمبراطور البيزنطي ثيوفيلوس محملة بالهدايا، والتي ردها حين بعث سفيره يحيى الغزال بالهدايا إلى القسطنطينية للإمبراطور. بالإضافة إلى سفارة أخرى استقبلها عبد الرحمن الأوسط من قبل هوريك الأول ملك النورمان لطلب الصلح بعد غزو النورمان لغرب الأندلس، والتي ردها عبد الرحمن أيضًا ببعثه لسفيره يحيى الغزال إلى بلاط هوريك. كما استقبل عبد الرحمن الناصر لدين الله في عهده سفارات قسطنطين السابع قيصر القسطنطينية وبطرس الأول إمبراطور بلغاريا ولويس الرابع ملك فرنسا والبابا يوحنا الثاني عشربابا الفاتيكان وأوتو الأول إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والتي بادلها الناصر بسفرائه، كما استقبل الحكم المستنصر بالله سفارات صداقة من يوحنا زيمسكي قيصر بيزنطة وأوتو الثاني إمبراطور الألمان. لم يقتصر استقبال بلاط الأمويين

على سفارات المودة فقط. بل وسار بعض ملوك الجوار كتودا النافارية وابنها غارسيا سانشيز الأول ملك نافارا وحفيدها سانشو الأول ملك ليون وإلبيرا راميريز عمة الملك راميرو الثالث ملك ليون وبرمودو الثاني ملك ليون وسانشو الثاني ملك نافارا، إلى قرطبة بأنفسهم إما لطلب الصلح أو طلب معاونة الأمويين لهم في التغلب على منافسيهم على العرش.

المظاهر الاجتماعية وعناصر المجتمع الأندلسي

الدين

اتصف أهل الأندلس بالتدين والمحافظة على الشعائر الدينية إلا القليلين، وقد انتشر بينهم في البداية مذهب الأوزاعي الذي كان منتشرًا بين أهل الشام والذي دخل الأندلس وساد فيها منذ الفتح، إلى أن رحل جماعة من فقهاء الأندلس منهم زياد بن عبد الرحمن اللخمي وعيسى بن دينار ويحيى بن يحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب السلمي. إلى المشرق، وعادوا من الشرق في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن بمذهب مالك، ونشروه حتى انتقلت الفتيا من مذهب الأوزاعي إلى مذهب مالك في عهد الأمير الحكم بن هشام. وفي عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، أدخل القاسم بن محمد بن سيّار المذهب الشافعي إلى الأندلس، والذي بذل تلاميذه وأبرزهم بقي بن مخلد جهدًا لنشره، إلا أنه لم يلق قبولاً في الأندلس.

إلا أن مذهب آخر وجد سبيله إلى الأندلس أيضًا في عهد محمد بن عبد الرحمن على يد عبد الله بن قاسم القيسي، ولقى استحسان الكثير من الأندلسيين، ألا وهو المذهب الظاهري والذي اشتهر من أئمته في الأندلس المنذر بن سعيد البلوطي وابن حزم. ومن الفرق الإسلامية الأخرى، كانت هناك محاولات في عهد عبد الرحمن الناصر لنشرالمذهب

الشيعي، إلا أن الأمويين قاوموا تلك المحاولات خوفًا من تغلغل نفوذ أعدائهم الفاطميين شيعيي المذهب إلى الأندلس، لذا فقد بائت تلك المحاولات بالفشل.

كما كانت هناك أيضًا محاولات لنشر مذهب المعتزلة على يد عدد من أتباعه وأبرزهم ابن مسرة، إلا أنه أيضًا لم يلق قبولاً، لميل أهل الأندلس في تلك الفترة للمذاهب التي تعتمد على النصوص كالمالكية، لا القياس العقلي كالمعتزلة. لذا ولنفس السبب، اهتم الأندلسيين بعلم الحديث، وبرز منهم عدد من المحدّثين الذين كانت لهم رحلاتهم إلى المشرق لطلب علم الحديث ونشره في الأندلس كمحمد بن وضاح وقاسم بن أصبغ ومحمد بن عبد الملك بن أيمن. ولم يهمل الأندلسيين في تلك الفترة القرآن وعلومه، فنبغ منهم في علم القراءات أبو العباس الأقليشي وأبو عمرو الداني، وفي التفسيربرع منهم بقي بن مخلد الذي كان له تفسيرًا للقرآن قال عنه ابن حزم: «أنه لم يُؤلف في الإسلام تفسير مثله، لا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره.»

أما عن المسيحيين واليهود، بمعاملة خاصة مكنتهم من حرية الدين والمعتقد، حتى أن قضاياهم كان لهم حق الفصل بها بموافقة من السلطة الإسلامية العليا. فكان يسمح بتطبيق شرائعهم على يد قضاتهم الذين كانوا يعرفون بقضاة النصارى أو قضاة العجم، وتحت مسؤولية رئيس طائفتهم الذي كان يحمل لقب «القومس»، أما الخلافات التي كانت تقع بينهم وبين المسلمين، فكانت تعرض على القضاء الإسلامي، فكثرت كنائسهم في كل الأندلس ما بين القرن الثامن والثاني عشر، سواء في المدن الكبرى أو الصغرى. ومن أشهر هذه كنائسهم أيام الخلافة، الكنيسة العظمى بقرطبة، ومن أشهر الأديرة الواقعة في أطراف المدينة دير أرملاط، ولم تهدم الكنائس في الأندلس، إلا في حالات خاصة كأن تكون الكنيسة معقلاً للثورة على السلطة، كهدم بعض الكنائس خلال ثورة ابن حفصون. كما كانت الأناجيل أيضًا شائعة يطالعها المسيحي وغير المسيحي، وقد أفاد منها ابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، حيث ذكر أنه كان يصاحب رجال الكنيسة

ويجادلهم. كما ظلت سلطة اليهود ومقاليد أمورهم الدينية الخاصة بهم بين أيديهم، فقد جرت العادة على تعيين السلطة لمن يتولى رئاستهم والذي كان يعرف بـ «الناجد» أو «الحاخام»، كما كان يتولى قضائهم بينهم شيخ اليهود فيما يخص أمورهم الخاصة وتشريعهم، ويكون هذا الشيخ نفسه هو الواسطة بينهم وبين السلطة المدنية، وقد تمتع اليهود، في ظل هذه الحرية، بالسماح لهم ببناء دور عبادتهم في أحيائهم الخاصة وكذلك بين السكان المسلمين. أتاحت تلك الحرية الفكرية لأبناء الأندلس من غير المسلمين الفرصة في التعمق في دراساتهم الدينية، فأسس حسداي بن شبروط الطبيب الخاص للخليفة عبد الرحمن الناصر مدرسة للدراسات التلمودية في قرطبة، كما وضعابن حيوج الأسس الأولى لعلم النحو العبري.

عناصر المجتمع

كان المجتمع الأندلسي خليطًا من أجناس مختلفة امتزجت في بوتقة المجتمع الأندلسي لتتكون منها الشخصية الأندلسية المستقلة. وقد كانت عناصر المجتمع الأندلسي كالتالي :

١. **العرب**: دخل العرب إلى الأندلس في موجات متعاقبة، إلا أن أبرزها كان ما يسمى بطالعة موسى وهم الجند الغازي الذين دخل الأندلس بصحبة موسى بن نصير عام ٩٣ هـ، والذين كانوا من العرب القيسية واليمانية، والذين انتشروا في الأندلس فسكنت القيسية في نواحي الجنوب، وتوزعت اليمانية بين المناطق الشمالية والشمالية الغربية. كان أبرز الهجرات العربية التالية طالعة بلج بن بشر القشيري، وهم الجند الذين بعثهم الخليفة هشام بن عبد الملك إلى المغرب للقضاء على ثورة البربر هناك، ثم استعان بهم عبد الملك بن قطن الفهري والي الأندلس عام ١٢٢ هـ للقضاء على ثورة البربر في شمال الأندلس، واستقروا بها، والذين كان معظمهم من القيسيين، ودخلوا بعد فترة وجيزة في صراع مع عبد

الملك بن قطن واليمانية، وخلعوه وسيطروا على قرطبة، إلى أن وزعهم أبو الخطار الكلبي على كور الأندلس، فأسكنهم جيان وباجة وأكشونبة وبعض نواحي تدمير وشذونة والجزيرة وإشبيليةولبلة ورية وإلبيرة. غلبت النزعة القبلية على عرب الأندلس، وشكلوا النواة الارستقراطية والبرجوازية بالمدن، فتقلدوا مراتب الوزارة والكتابة والقضاء والشرطة والحسبة وبيت المال وضرب السكة. أما عامتهم فقد احترفوا الزراعة ونسج الحرير والغزل والنسيج والتجارة فيهما، وبيع العطر والشمع والفاكهة والخضر والخبز.

٢. **البربر**: كان البربر يمثلون معظم الجيش الفاتح للأندلس مع طارق بن زياد. ونظرًا لقرب مساكنهم من الأندلس، توالت هجراتهم إليها أن علموا بنجاح الفتح، وخاصة من قبائل زناتة. وبعد أن انتهج العامريون سياسة تقريب البربر والاعتماد عليهم كعماد للجيش بدلاً من العرب والصقالبة، هاجرت جموع كبيرة من البربر إلى الأندلس خاصة من بطون صنهاجة، ولعبوا دورًا كبيرًا في فترة الفتنة. اختار البربر النزول في المناطق الجبلية في الأندلس في الجنوب والوسط والغرب لتقاربها مع طبيعة بلادهم. وقد امتهن من سكن المدن منهم الحرف اليدوية والصيد والسقاية والبناء، فيما امتهن سكان البوادي جلب البقر والسمن والزيت والعسل والصوف والدجاج والفواكه والفحم والخشب، وبيعها في المدن.

٣. **الموالي والصقالبة**: لعب الموالي دورًا كبيرً في تأسيس الدولة الأموية في الأندلس بما قدموه من دعم لعبد الرحمن الداخل عند دخوله الأندلس. أصبح تأثير الموالي مؤثرًا منذ أن دخل ألفان مولى من أصل عشرة آلاف رجل إلى الأندلس في طالعة بلج. وقد اعتمد عليهم الأمويون في بداية دولتهم في الأندلس، وظلت أسر منهم تستأثر بالمناصب لدى الأمراء والخلفاء كبني جهور وبني أبي عبدة. أما الصقالبة فهم الخدم والمماليك الذين جلبهم النخاسون الجرمان واليهود من أسرى حروب الجرمان مع الصقالبة، وباعوهم في

الأندلس. وكثر عدد الصقالبة أيام الخلافة، حيث كانوا يستخدمون كخدم وجنود، وصار لهم تأثير كبير، خصوصًا وأنهم كانوا في خدمة أصحاب القرار، وقادة للجيوش، وكانت لهم مؤامراتهم داخل القصور كمحاولة فائق وجؤذر كبيرا صقالبة قصر الخلافة بعد وفاة الحكم المستنصر بالله لتنحية وليّ عهده هشام المؤيد بالله، وتولية أخيه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر لدين الله التي نجح الحاجب جعفر المصحفي بمعاونة محمد بن أبي عامر في إفشالهم، واستخدموا أحيانًا في قمع الثوارت كثورة أهل الربض في عهد الحكم الربضي. وإلى جانب الخدمة في القصور، اشتغل الموالي والصقالبة في الحياكة والنسيج وسبك الحديد وصنع آلات الحرب والصباغة والنجارة، وتجارة النعال والجلاليب واللحم وضرب الطبول والقيام بالمساجد والأذان ورصد الوقت ودفن الموتى وحفر القبور وحراسة الأسواق ليلاً وحراسة الفنادق وحمل السلع من بلد إلى بلد.

٤. **المستعربون**: هم المسيحيون الذين بقوا على دينهم بعد فتح الأندلس، وعاشوا في كنف دولة المسلمين. كان المسلمون يسمونهم بعجم الأندلس، إلا أنه ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي، أطلق عليهم لقب المستعربون وهو لقب استخدمه مسيحيو الممالك الشمالية لتمييز هؤلاء المسيحيين الذين تأثروا بالمسلمين ثقافةً ولغةً وأسلوب حياة، فكانت لهم طقوسهم الدينية الخاصة ورجال دين خاصون بهم، بل وكانوا يستخدمون لغة خاصة بهم، ظلت تستخدم كلغة منطوقة حتى القرن الرابع عشر. وخلال فترة الحكم الأموي، استخدمهم الأمويون في إدارة بعض شئون البلاد الاقتصادية وتنظيم الدولة. أما عوامهم فقد امتهنوا الزراعة وتربية الماشية وقطع الأخشاب وصناعة الفحم وصيد الأسماك وصناعة السفن وآلاتها.

٥. **المولدون**: هم سكان الأندلس الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام وأبناء العرب والبربر من أمهات إسبانيات. لم يكن هناك فرق بين وضعهم العام ووضع العرب والبربر المسلمين في الأصل. بل وبرزت منهم بيوتات كانت لها مكانتها السياسية كبني قسي وبنو

الطويل في الثغر الأعلى، وكان منهم العلماء كابن القوطية. إلا أن قطاعًا منهم كانت لهم نزعاتهم العصبية ضد العرب، وكانوا يثورون على سلطة الدولة في فترات ضعفها كابن حفصونوابن مروان الجليقي. وقد امتهنت تلك الطائفة الزراعة والتجارة، واستخدمهم الأمويون في بعض المناصب الإدارية.

٦. **اليهود**: عاش اليهود في العديد من المدن كقرطبة وإشبيلية ولسيانة وغرناطة وطليطلة وقلعة حماد وسرقسطة وطركونة وطرطوشة. وامتهنوا الخياطة والصباغة والحجامة والدلالة في الأسواق وصناعة الصابون وتجارة الحلي والأصواف والكتان وآلات الطرب، وتجارة العبيد والحرير والتوابل.

الأدب

لم يقتصر اهتمام الأندلسيين على العلوم الدينية فقط، فاهتموا بالعديد من ألوان الأدب كالشعر والنثر وعلوم اللغة والتأريخ وكتب السير والتراجم، وقد برزت أسماء كثيرة في تلك الفنون في عهد الدولة الأموية في الأندلس. ففي فن الكتابة الأدبية، لمع ابن عبد ربه وكتابه «العقد الفريد» الذي كان بمثابة موسوعة ثقافية تبين أحوال الحضارة الإسلامية في عصره، وتناول فيه السياسة وفنون الحرب والنوادر وفضائل العرب والخطب والحديث واللغة والتاريخ والشعر وطبائع البشر وألوان الملابس والطعام. وبرز أيضًا ابن شهيد صاحب «رسالة التوابع والزوابع» ذات الإطار الخيالي الخصب. وفي فن الخطابة ذي التأثير الديني والسياسي، برع المنذر بن سعيد البلوطي الذي كانت لخطبته التي ارتجلها أمام سفارة قيصر بيزنطة إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر عام ٣٣٦ هـ، أثرها في ظهوره على الساحة الأندلسية كفقيه وخطيب مفوّه. وفي علوم اللغة والنحو، بعد أن دخل جودي بن عثمان المووروري بكتب الكسائي، اهتم الأندلسيون بعلم النحو، كما كان لانتقال أبي علي القالي من العراق للأندلس دوره في ذيوع علوم اللغة

وأشعار الشرق في الأندلس. وقد ألف الأندلسيون كتبًا في علوم اللغة، بل وخاضوا في مواضيع لم يسبقهم إليها أحد ككتاب «تصاريف الأفعال» لابن القوطية وهو أول كتاب يتناول الأفعال الثلاثية والرباعية،

أما الشعر، فقد كان أثر الشرق واضحًا فيه حيث تأثر شعر الأندلس بشعراء الشرق، فظهر أثر شعراء الزهد كأبي العتاهية على أشعار ابن أبي زمنين وابن عبد ربه وأبي بكر الزبيدي وغيرهم، وشعراء الغزل والمديح والفخر والحماسة كأبي نواس وأبي تمام وابن الرومي والمتنبي وابن المعتز، والذين ظهر أثرهم جليًا في شعر يحيى الغزال وابن دراج القسطلي وابن هانئ. وظل الشعر الأندلسي بلا إبداع محاكيًا لشعر الشرق وغير مصقول، فقيرًا من الناحية الذهنية التفكيرية، مكبلاً بقيود الجوانب الشكلية الجامدة. ولم تسبق الأندلس الشرق في ألوان الأدب إلا في فن **الموشحات** الذي ابتكره مقدم بن معافى القبري، والذي أصبح بحلول القرن الرابع الهجري أشهر أشكال الأدب في الأندلس، كما أنها تعتبر فن أندلسي خالص. ويعد ابن عبد ربه وعبادة بن ماء السماء ويوسف بن هارون الرمادي أشهر وشاحو عصر الدولة الأموية في الأندلس.

كان للأندلسيين أيضًا اسهاماتهم التأريخية التي اهتمت بالتأريخ للأندلس منذ الفتح، والتي تطورت من النقل التاريخي الذي يفيض فيه اللون الأسطوري كتاريخ عيسى بن أحمد الرازي وتاريخ عبد الملك بن حبيب السلمي، إلى أن انتقل إلى الإحكام والدقة ككتابي «تاريخ افتتاح الأندلس» لابن القوطية و«تقويم قرطبة»لعريب بن سعيد القرطبي. وقد اهتم الأندلسيون أيضًا بتدوين السير والتراجم التي تناولت تصنيفات مختلفة للتراجم ككتاب «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي وكتاب «قضاة قرطبة» لمحمد بن الحارث الخشني.

لم يكن الأمراء والخلفاء بعيدين عن هذا الجو الأدبي، فقد اهتم الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي كان شغوفًا بجمع الكتب بنقل الثقافة من المشرق إلى قرطبة، فأرسل شاعره

ووزيره عباس بن ناصح الجزيري إلى المشرق، للبحث عن الكتب القيمة واستنساخها، وهي النواة التي تكونت منها بعد ذلك منها مكتبة قرطبة، وهي الهواية التي شاركه فيها الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر بالله الذي وصل عدد الكتب في مكتبته إلى ٤٠٠.٠٠٠ كتاب، بل واهتم الحكم أيضًا باستجلاب العلماء ورواة الحديث من الأقطار، وكان يحضر مجالسهم ويروي عنهم. لم يقتصر دور أمويي الأندلس على رعاية الأدب، بل وأدلى أفراد منهم بدلائهم في هذا الفن، فكان منهم الشعراء كيعقوب وبشر ابني الأمير عبد الرحمن بن الحكم وأبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر المعروف بالطليق، الذي قال عنه ابن حزم: «أبو عبد الملك هذا في بني أمية كابن المعتز في بني العباس، ملاحة شعر وحُسن تشبيه.» واللغويين كالمنذر بن عبد الرحمن وهو من نسل المنذر بن عبد الرحمن الداخل الذي وصفه ابن حزم بأنه كان إمامًا في علم النحو، وعبد العزيز بن الحكم بن أحمد بن الأمير محمد بن عبد الرحمن الذي كان عالمًا بالنحو وغريب اللغة. والمؤرخين كمعاوية بن هشام بن محمد المعروف بابن الشبانسي الذي كان له كتابين أحدهما في نسب العلويين والآخر في أخبار الدولة الأموية في الأندلس، وعبد الله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله الذي كان له كتاب «العليل والقتيل في أخبار ولد العباس».

العمارة

اهتم الأمويون بالعمارة في الأندلس، فبنوا القصبات والحصون والأسوار والأبواب وأسسوا المدن، كما اهتموا ببناء المساجد والقصور والحمامات والقباب والقناطر المائية التي زينوها بالزخارف والنقوش. استفاد الأندلسيون مما حملوه معهم من فن العمارة الإسلامية من الشرق، ومزجوه مع ما وجدوه في الأندلس من عمارة رومانيةوقوطية، فأنتجوا خليطًا متميزًا ميّز فن العمارة الأندلسي، وجعله فنًا مستقلاً له خصائصه الخاصة

التي تميزه. ورغم مرور نحو ألف عام منذ سقوط الدولة الأموية في الأندلس، إلا أنه ما زالت هناك العديد من الآثار الخالدة التي تشهد على عظمة فن العمارة الأندلسي في عصر الدولة الأموية في الأندلس.

يعد الجامع الكبير في قرطبة دُرّة العمارة الدينية في عهد الدولة الأموية في الأندلس، فما زال خالدًا ليشهد على عظمة الفن الأندلسي في تلك الفترة. أنشأه عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦م محل كنيسة قوطية، وأراده عبد الرحمن الداخل أن يكون أعظم مساجد الأندلس وأفخمها. أنفق الداخل ٨٠ ألف دينار على بنائه، واشترى أرضًا من مسيحيي قرطبة بمائة ألف دينار ليضمها إلى الجامع، إلا أنه مات قبل أن يكتمل بنائه، الذي اكتمل في عهد ابنه هشام الرضا. تمت توسعة الجامع عدة مرات أولاها في عهد عبد الرحمن الأوسط التي أتمها ابنه محمد بن عبد الرحمن. كما قام الأمير المنذر بن محمد بترميم ما وهي من بنائه، وأضاف الحكم المستنصر بالله إليه زيادة لما ضاق المسجد بأهل قرطبة في عهده، وكذلك فعل محمد بن أبي عامر، حتى بلغ عدد سواريه ١.٤١٧ سارية وثراياه ٢٨٠ ثُريّة وأبوابه ٢١ بابًا. ويبلغ طوله ١٨٠ م وعرضه ١٣٥ م بارتفاع ١٢ م. استوحي بناء الجامع من تصميم الجامع الأموي في دمشق، وكان يربطه بقصر الخلافة ممرًا مسقوفًا لوصول الأمير إلى الجامع مباشرة بعيدًا عن أعين العامة. وقد أضيف الجامع إلى مواقع التراث العالمي عام ١٩٨٤.

ومن آثار العمارة الدينية أيضًا، مسجد إشبيلية الذي بني في عهد عبد الرحمن بن الحكم عام ٢١٤ هـ/ ٨٣٠م، الذي تعرض لبعض الأضرار نتيجة غزو النورمان لإشبيلية عام ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م، كما تأثر بزلزال عام ٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩ م، إلا أنه وبعد سقوط المدينة في يد الإسبان عام ١٢٤٦ م، تم تحويله إلى كنيسة، وفي عام ١٦٧١ م تم هدمه وبناء كنيسة جديدة في مكانه، ولم يبق منه إلا أجزاء من صحن المسجد ومئذنته، وباب المسجد الرئيسي الذي يبلغ طوله ١٠ أمتار وعرضه ٥ أمتار، ويعرف الآن بباب الغفران

(بالإسبانية:Puerta del Perdón). ومن الآثار المعمارية الباقية أيضًا مسجد باب المردوم بطليطلة الذي بناه قاضي طليطلة أحمد بن حديدي عام ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩م، وقد تحول المسجد أيضًا إلى كنيسة «Cristo de la Luz» بعد أن استولى ألفونسو السادس ملك قشتالة على المدينة عام ١٠٨٥م. وأجزاء من المسجد الجامع في مدينة الزهراء الذي بناه عبد الرحمن الناصر لدين الله عام ٣٢٩ هـ / ٩٤١م، والذي لا تزال أطلاله باقية إلى الآن.

وكما اهتم الأمويون بالعمارة الدينية، اهتموا أيضًا بالعمارة المدنية، فقد اعتنوا ببناء القصور كقصور الخلافة والرصافة والمؤنس في قرطبة، وشيّدوا المدن لتكون مراكز للحكم والإدارة كالزهراء التي أسسها عبد الرحمن الناصر لدين الله عام ٣٢٥ هـ/ ٩٣٦م والزاهرة التي بناها محمد بن أبي عامر عام ٣٦٨ هـ/ ٩٧٨ م ومرسية التي بناها عبد الرحمن بن الحكم، لتكون قاعدة لكورة تدمير. بلغت الزهراء التي كانت مقرًا لحكم الأمويين لأربعين عامًا في عهدي عبد الرحمن الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر بالله شأوًا عظيمًا، فضمت الزهراء قاعات احتفال ومساجد ودور حكومية وحدائق ودار لسك العملة وورش للعمال، وثكنات ومساكن للجند وحمامات، كما تم إمدادها بالمياه عبر قنوات. وقد امتد العمارة في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة حتى اتصلت، فكان يُمشى فيها لعشرة أميال على ضوء السُرُج.

الموسيقى

كان فن الغناء في الأندلس في بداية عهد الدولة الأموية محصورًا في لونين، إما على نسق الغناء الشعبي الذي كان منتشرًا قبل الفتح الإسلامي، وإما على نهج الحداء العربي الذي نقله العرب الداخلون إلى الأندلس معهم. إلا أنه وبعد دخول المغنيين المشرقيين بألوان الغناء التي كانت منتشرة في العراق والحجاز، كزرقون وعلون في عهد الحكم

الربضي وزرياب في عهد عبد الرحمن الأوسط وهو الأمير الذي كان مولعًا بالغناء، حتى أنه كان يبعث إلى المشرق من يشترى له الجواري الذين اشتهرن بالغناء، بل وخصص لهن مكانًا في قصره عُرف بدار المدنيات، فانتشرت بذلك المغاني في الأندلس.

نجح زرياب في توظيف فنه ليتواءم مع الأشعار والموشحات والأزجال الأندلسية، كما كان لإدخاله وترًا خامسًا على العود، دوره في نشأة الغيتار الإسباني. كما لعبت موسيقى الأندلس دورًا في نقل الآلات الموسيقية الشرقية للغرب، كالكمان الذي تطور من الربابة، ويظهر ذلك من المصطلحات الموسيقية ذات أصول عربية التي اكتسبتها الموسيقى الغربية، ككلمات «adufe» من الدف، «alboka» من البوق، «anafil» من النفير، «atabal» منالطبل، «atambal» من الطنبل.

العلوم

كان اهتمام الأندلسيين بالفلسفة في عهد الدولة الأموية في الأندلس ضعيفًا، لما كانوا عليه من ميل ديني للمذاهب الفقهية التي تعتمد على النصوص، بل وكانوا يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة. ورغم هذا الجو القاتل لهذا العلم، إلا أنه ظهر في هذا العهد واحدًا من الفلاسفة اللامعين وهو ابن مسرة، الذي رحل إلى المشرق واختلط بالمشتغلين من الفلاسفة في الشرق وتأثر بهم، وعاد إلى الأندلس ناشرًا فكره، لكنه لم يسلم من اتهام الفقهاء له ولأتباعه بالزندقة، مما دفع الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله لملاحقة أتباعه للقضاء على مذهبه. ورغم ذلك، لم يمنع هذا التضييق على الفلسفة والفلاسفة الخليفة الحكم المستنصر بالله الشغوف باقتناء الكتب على أن يجمع عددًا من كتب الفلسفة في مكتبته. التي ما أن استقر الأمر للحاجب المنصور استخرجها وأحرق بعضها وأتلف البعض ليكتسب بذلك تقدير العلماء والعامة من المتدينين.

أما الطب فكان أكثر العلوم المدنية التي أولاها الأندلسيون اهتمامهم، فاشتغلوا أولاً بدراسة الكتب القديمة ككتاب ديسقوريدس الذي تداول منه الأندلسيون نسخًا بترجمة اصطفن بن بسيل المشرقية، ثم أهديت منه نسخة باليونانية للخليفة الناصر، فأعيد ترجمتها في قرطبة، وتم تعريب ما صعب على المشرقيين ترجمته من أسماء النباتات التي ورد ذكرها باسمها اليوناني في ترجمة ابن بسيل. ولم يتوقف الأندلسيون عند ذلك، بل وكانت لهم تعليقاتهم على تلك الكتب القديمة كتعليقات ابن جلجل على كتب ديسقوريدس، وتعليقات الزهراوي على كتب القدماء ومعارضاته لبعض آرائهم. وقد تجاوزت شهرة الأطباء الأندلسيون الحدود في زمنهم، فكانت الملوك تفد إلى قرطبة لتستطبّ على يدي أطباء الأندلس. لم تقتصر تلك شهرة أطباء الأندلس على زمانهم فقط، فقد ظل كتابالتصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم الزهراوي الملقّب بأبو الجراحة الحديثة الذي ضم وصف ورسوم لمائتي جهاز جراحي اخترعهم الزهراوي، يستخدم كمرجع أساسي فيالجراحة في أوروبا العصور الوسطى، كما ترجم ألبيرتوس ماغنوس بعض أعمال ابن جلجل إلى الغرب.

وفي علمي الرياضيات والفلك، درس الأندلسيون علم الفلك ونبغ منهم في هذا المجال أيضًا مسلمة المجريطي الذي اهتم بدراسة كتب بطليموس وحسّن ترجمة المجسطي، وطوّر جداول الخوارزميالفلكية، وقدّم تقنيات في علمي المساحة والتثليث، إضافة إلى تلميذيه ابن السمح القرطبي وابن الصفار اللذان ألف كل منها زيجًا فلكيًا. أما الكيمياء، فقد خرج بها الأندلسيون من دائرةالخيمياء إلى الكيمياء العلم الذي يقوم على المراقبة والتجريب. ولعل أبرز انجازاتهم في مجال الكيمياء استنباط عباس بن فرناس الذي اشتهر بمحاولته للطيران. والذي استنبط طريقة لكيفية صناعة الزجاج من الأحجار عن طريق معالجتها كيميائيًا، والمجريطي الذي أجرى التجارب على أكسيد الزئبق الثنائي، ونجح في فصل الذهب عن الفضة.

النشاط الاقتصادي

تنوع النشاط الاقتصادي في الأندلس في عهد الدولة الأموية في الأندلس بين زراعة وصناعة وتجارة. فقد اهتم المسلمون في عهد الدولة الأموية في الأندلس بالزراعة، فأصلحوا وسائل الري ونظّموها، وبنوا السدود وشقوا القنوات، وأقاموا الجسور والقناطر، واستغلوا مياه المتساقطة من الجبال، وحفروا لها أحواض لتجميعها، واستخدموا بعد ذلكالسواقي التي كانت تتراوح أقطارها بين ٢٠-٣٠م لرفع الماء منها. واستخدموا الثيران في تقليب الأرض وإعدادها للزراعة. وبرعوا أيضًا في تنسيق الحدائق، وأدخلوا إلى أوروبا نباتات لم تكن معروفة لدى الأوروبيين كالأرز وقصب السكر والزيتون والمشمش والقطن والفستق. وإلى جانب تلك النباتات زرعوا العنب والتين والرمان واللوزوالجوز والبندق والصنوبر والكمثرى والدراق وال سفرجل والتوت

والتفاح والنخيل والكتان والقمح والشعير.

وفي النشاط الصناعي، عرفت الأندلس في تلك الفترة الصناعات الغذائية كتجفيف الحبوب والفواكه وصناعة النبيذ ومعاصر الزيتون. وصناعة المنسوجات والصباغة والصناعات المعدنية والزجاج والفخار المُذهب والفسيفساء، والدباغة. والسجاد والسكر والورق والتحف المعدنية اشتهرت الأندلس أيضًا بصناعة الملابس من الكتان والحرير والتي كانت تصل إلى مصر ومكة واليمن.

كما استخرج الأندلسيون الحديد والذهب والفضة والرصاص والزئبق، كما استخدموا الرخام بألوانه المتعددة.

أما التجارة، فقد راجت التجارة الداخلية والخارجية في الأندلس لسيطرتهم على الحوض الغربي للبحر المتوسط، فكانت موانئ الأندلس تعج بالنشاط والحركة، وقد ذكر ابن حوقل أن بعض المنتجات الأندلسية كالملابس المطرزة والأصواف والأصبغ

والحرير والورق والملابس الكتانية والتين المجفف والخزف المُذهب والأسلحة، كانت تصدر إلى مصر وخراسان وغيرها. كما كان للدينار القرطبي قوته الاقتصادية في كل الأندلس وبعض بلدان أوروبا منذ أمر عبد الرحمن الداخل بسكّه، فكانت المبادلات التجارية تتم بالدينار العربي ودينار بيزنطة ودينار غالة الذي سكّه شارلمان. بل ظلت الممالك المسيحية في الشمال تتعامل بالنقود العربية والفرنسية لفترة طويلة من الزمن. تنوعت مصادر دخل الدولة الأموية في الأندلس من الزراعة والصناعة والتجارة والموارد الطبيعية، إضافة إلى ما كانت تفرضه الدولة من خراج على الأراضي وجزية على الذميين وغنائم الحروب والضرائب المفروضة والرسوم المفروضة على البضائع التي تمر على موانئ الأندلس. وقد بلغت الدولة ذروة نشاطها الاقتصادي في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث بلغت جباية الأندلس من الكور والقرى خمسة ملايين وأربعمائة وثمانين ألف دينار، ومن ضريبة الأسواق سبعمائة وخمس وستين ألف دينار، بالإضافة إلى ما كان يدخل خزائن الدولة من أخماس الأغنام.

اهم المعارك قبل الفتح

معركة وادي لكة

معركة وادي لكة أو **معركة شذونة** أو **معركة سهل البرباط** هي معركة وقعت في ٢٨ رمضان ٩٢ هـ/ ١٩ يوليو ٧١١ م بين قوات الدولة الأموية بقيادة طارق بن زياد وجيشالقوط الغربيين بقيادة الملك رودريك الذي يعرف في المصادر الإسلامية باسم **لذريق**. انتصر الأمويون في تلك المعركة انتصارًا ساحقًا أدى لسقوط دولة القوط الغربيين، وبالتالي سقوط معظم أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية تحت سيطرة الأمويين.

المصادر حول المعركة

لم تتناول الكثير من المصادر الغربية المعركة، حيث كان المصدر الرئيسي في المصادر الغربية التي تناولت هو تأريخ عام ٧٥٤ الذي كتب بعد عام ٧٥٤ بفترة قصيرة. المصدر اللاتيني المسيحي الآخر الذي كتب خلال قرن من تاريخ المعركة هو تأريخ اللومبارد الذي كتبه بولس الشماس، الذي لم يكن قوطيًا غربيًا ولا هسبانيًا، ويعتقد أنه كتب بين عامي ٧٨٧- ٧٩٦ م. يعد تأريخ عام ٧٤١ هو الأقرب لتاريخ وقوع هذه المعركة، لكنه لم يحتو على أي مادة أصلية تتعلق بالمعركة. احتوت عدد من المصادر المسيحية اللاتينية في وقت لاحق على وصف لأحداث المعركة التي اعتمد عليها أحيانًا المؤرخون، لعل أبرزها تأريخ ألفونسو الثالث، الذي كتبه ألفونسو الثالث ملك أستورياس في أواخر القرن التاسع.

أما المصادر الإسلامية، فهناك العديد منها، لكنها محل انتقادات من قبل المؤرخين الغربيين، حيث لم يكتب أيا منها قبل منتصف القرن التاسع الميلادي، وأقدمها "فتوح مصر والمغرب" لابن عبد الحكم، الذي كتبه في مصر.

خلفية

في السنوات التي سبقت المعركة، نجح موسى بن نصير والي إفريقية من قبل الدولة الأموية في السيطرة على المغرب الأقصى الذي كانت تسوده الاضطرابات والخروج عن سلطة الأمويين من آن إلى آخر. كما نجح في ضم مناطق لم تكن خاضعة للأمويين هناك، أهمها طنجة التي جعل من مولاه طارق بن زياد حاكمًا عليها. ولم يعد بالمغرب الأقصى سوى سبتة التي لم تكن تخضع لسلطان الأمويين. كانت سبتة تحت حكم رجل يدعى بيوليان وعلى الجانب الآخر، شهدت السنوات التي سبقت المعركة، انقلاب رودريك دوق باتيكا على الملك ويتزا ملك القوط الغربيين، واستيلائه على المملكة. إلا

أن سيطرته على المملكة لم تكن كاملة، نظرًا لوجود مناصرين لأبناء الملك المخلوع في الشمال.

تذكر المصادر الإسلامية، أن السبب وراء فكرة غزو المسلمين لأيبيريا أن يوليان كانت له ابنة أرسلها لبلاط رودريك كما كان يفعل جميع النبلاء في تلك الفترة، فأعجب بها رودريك واغتصبها، مما أثار غضب يوليان وعزم على الانتقام. عرض يوليان موسى بن نصير وقيل طارق بن زياد مساعدتهم على غزو إسبانيا بأن يمدهم بسفنه. استشار موسى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك فأجابه قائلاً: «خضها بالسرايا حتى تختبرها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال.» أرسل موسى سرية للاستطلاع في رمضان ٩١ هـ قوامها ١٠٠ فارس و٤٠٠ من المشاة تحت قيادة طريف بن مالك الذي نزل بهم جزيرة طريف. شكك بعض المؤرخين الغربيين في كون يوليان كونت سبتة قد أعار المسلمين سفنه للعبور إلى أيبيريا، إضافة إلى قصة اغتصاب ابنته من قبل رودريك، وقالها بأنها أسطورة اختلقها المؤرخون المسلمون في نهاية القرن التاسع، مستدلين على ذلك بكون المسلمين قد كانت لهم قواتهم البحرية في غرب البحر المتوسط بالفعل، وهو ما يؤكده مهاجمتهم للجزائر الشرقية قبل ذلك بأعوام.

وبعد عام تقريبًا، عبر ٧.٠٠٠ مقاتل مسلم أغلبهم من البربر تحت قيادة طارق بن زياد على سفن يوليان إلى جبل طارق، واجتاحوا الجزيرة الخضراء. في تلك الفترة، كان رودريك يشن حملة في الشمال على المتمردين البشكنس، حيث بلغته تحركات المسلمين، فقرر التوجه جنوبًا لقتالهم. وحين بلغ طارق تحرك جيش رودريك لقتاله، طلب المدد من موسى بن نصير الذي أمده بخمسة آلاف آخرين.

موقع المعركة وتقديرات الأعداد

تذكر المصادر العربية وقوع المعركة قرب شذونة، في موقع يقال له البحيرة أو وادي لكة أو وادي بكة أو وادي برباط. ويرجح المؤرخ توماس هودجكين رأي رودريغو

خيمينيز دي رادا، بأن المعركة وقعت في فحص شريش. فيما يعتقد خواكين بالبي بأن المعركة دارت على ضفاف وادي رانكة.

تذكر المصادر العربية أن جيش رودريك كان قوامه ١٠٠.٠٠٠ جندي، وقيل ٤٠.٠٠٠ جندي.

في المقابل، قدر «تاريخ ألفونسو الثالث» يقدرهم بنحو ١٨٧.٠٠٠ جندي. فيما تذكر المصادر العربية أن طارق عبر بسبعة آلاف جندي، ثم أمده موسى بن نصير بخمسة آلاف أخرى، أي أنه دخل المعركة باثني عشر ألف مقاتل على أقصى تقدير. وفي تقدير روجر كولينز الذي تجاهل المصادر الأولية، أن عدد المسلمين كان حوالي ألفي جندي، ولم يكن عدد قوات القوط الغربيين أكبر من ذلك بكثير. أما ديفيد لويس فقد قدّر عدد قوات القوط الغربيين بحوالي ٣٣.٠٠٠ جندي.

المعركة

التقت القوتان في ٢٨ رمضان ٩٢ هـ، في معركة استمرت لثمانية أيام، انتهت بهزيمة كبيرة للقوط، بعد أن تعرض رودريك لخيانة في داخل جيشه أدت إلى هذا النصر الإسلامي الكبير. فوفقًا لتأريخ المستعربين، فقد ساهم منافسي رودريك الطامحين في الحكم في هزيمة القوط الغربيين.

ألقى تأريخ ألفونسو الثالث باللوم على أبناء ويتزا لتآمرهم على رودريك. كما كان ظهور أوبا شقيق ويتزا في طليطلة وقت أن دخلها موسى بن نصير، سببًا في اعتقاد بعض المؤرخين أنه شارك في المؤامرة التي حيكت ضد رودريك. كما رجّح بعض المؤرخين الغربيين المعاصرين أن يهود أيبيريا المضطهدين من قبل القوط الغربيين قد ساهموا بفاعلية وشاركوا في صفوف المسلمين، مستشهدين بما ذكره صاحب كتاب أخبار مجموعة

بأن المسلمين كانوا يستخدمون اليهود في حامياتهم. ورغم كل ذلك، فلم يذكر تأريخ المستعربين مشاركة اليهود في جانب المسلمين.

نتج عن انهيار جيش القوط خسارتهم لعدد كبير من الجنود، بينما خسر المسلمون على أقصى تقدير ٣.٠٠٠ رجل. أما عن مصير رودريك، فتقول المصادر الإسلامية أنه اختفى أثره بعد المعركة، ولكنها تستدل على موته غارقًا في الوحل بعثور المسلمين على فرس رودريك الأبيض وقد غاص في بركة موحلة، ووجود خُف منغمس في الطين، رجحوا من خلاله غرقه في الوحل.

نتائج المعركة

مهدت المعركة لاستكمال الفتح الإسلامي للأندلس، وخلال عقد من الزمان، كانت كل شبه الجزيرة ما عدا منطقة صغيرة في أستورياس وجبال البشكنس تحت حكم المسلمين الذين عبروا إلى ما وراء جبال البرانس.

معركة تولوز

معركة تولوشة أو **معركة تولوز** (٩ ذو الحجة ١٠٢هـ/ ٩ يونيو ٧٢١م) هي معركة دارت في تولوز بين جيش الدولة الأموية بقيادة السمح بن مالك الخولاني، وقوات دوق أقطانية بقيادة أودو دوق أقطانيا، وانتهت بهزيمة الأمويين ومقتل قائدهم.

خلفية

في العقد الأخير من القرن الأول الهجري، نجح الأمويون في التقدم بقواتهم خلف جبال البرانس، وضمّوا سبتمانيا، واتخذوا من أربونة قاعدة لانطلاق حملاتهم للتوسع في غرب أوروبا. لكن لقي الأمويون مقاومة عنيفة من السكان المحليين من الباسكيين والغاسكونيين. كان الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز قد ولّى السمح بن

مالك الخولاني علياالأندلس سنة ١٠٠ هـ. في سنة ١٠٢ هـ، جهز السمح حملة للغزو والتوسع شرقًا في غرب أوروبا قادها بنفسه. علم أودو دوق أقطانية جيشًا لردّ الأمويين. والتقى الجيشان في ٩ ذي الحجة ١٠٢ هـ/ ٩ يونيه ٧٢١ م بالقرب من تولوز، ودارت معركة كبيرة انتهت بانتصار الدوق أودو، ومقتل السمح بن مالك الخولاني.

معركة بلاط الشهداء

معركة بلاط الشهداء أو معركة تور (بالإنجليزية: Battle of Tours) **أو معركة بواتييه** (بالفرنسية: Bataille de Poitiers) هي معركة دارت في رمضان ١١٤ هـ/ أكتوبر ٧٣٢م في موقع يقع بين مدينتي بواتييه وتور الفرنسيتين، وكانت بين قوات مسلمين تحت لواء الدولة الأموية، بقيادة والي الأندلس عبد الرحمن الغافقي من جهة، وقوات الفرنجة والبورغنديين بقيادة شارل مارتل من جهة أخرى، وانتهت بانتصار قوات الفرنجة وانسحاب جيش المسلمين بعد مقتل قائده عبد الرحمن الغافقي.

اعتبر مؤرخو الفرنجة في القرن التاسع، نتيجة المعركة حكم إلهي لصالح الفرنجة، كما اكتسب شارل مارتل من حينها لقبه "Martellus" الذي يعني المطرقة. تفاصيل المعركة من حيث الموقع وأعداد القوات المشاركة من الطرفين لا يمكن تحديدها على وجه الدقة. إلا أنه من المؤكد، أن قوات الفرنجة انتصرت في المعركة دون أن يكون لديهم سلاح فرسان. أشاد المؤرخون المسيحيون المتأخرون في فترة ما قبل القرن العشرين بشارل مارتل وعدّوه بطل المسيحية، واصفين المعركة بنقطة التحول الحاسمة في الكفاح ضد الإسلام، مما حفظ المسيحية كديانة لأوروبا. وفقًا للمؤرخ العسكري الحديث فيكتور ديفيس هانسون، فإن معظم مؤرخي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، رأوا أن المعركة أوقفت المد الإسلامي في أوروبا. لذا عدّها رانكه علامة فارقة في واحدة من أهم الحقب في تاريخ العالم.

وعلى النقيض، انقسم المؤرخون الحديثون الآخرون حول أهمية المعركة، واختلفوا حول ما إذا كان الانتصار معقولاً ليكون سببًا لإنقاذ المسيحية وإيقاف الفتح الإسلامي لأوروبا. إلا أن المعركة أسهمت في تأسيس الإمبراطورية الكارولنجية وهيمنة الفرنجة على أوروبا في القرن التالي. ويتفق معظم المؤرخين على أن نشأة القوة الفرنجية في أوروبا الغربية حددت مصير القارة، وأن هذه المعركة أكدت سلطتها.

التسمية والموقع

أطلقت المصادر العربية على المعركة اسم معركة بلاط الشهداء، تخليداً لذكرى قتلى المسلمين، ويُستَشَفُّ ذلك من رواية ابن حيان القرطبي. ونقلوا عن ابن حيان أن الأذانلبث عصوراً طويلة يسمع في موقع المعركة. بينما أطلق المؤرخون الغربيون عليها اسم معركة تور (بالإنجليزية: Battle of Tours) نسبة إلى مدينة تور، كما أطلقوا عليها اسم "معركة بواتييه" (بالفرنسية: Poitiers)، وهي غير معركة بواتييه التي جرت بين بريطانيا وفرنسا خلال حرب المئة عام. أما موقع المعركة فيطلقون عليه اسم موساي لاباتيّ (بالفرنسية: Moussais-la-Bataille). فيما حدد باحثون كالحجي وعبد الفتاح مقلد الغنيمي موقعها في قرية تقع ضمن أرض المعركة تدعى "خندق الملك" (بالفرنسية: Fossi le Roi)، حيث اكتشفت هناك حديثًا سيوف عربية، وموقع المعركة سهل ممتد بين مدينتي تور وبواتييه، محدد من الشرق بمجرى نهر فيين الذي يرفد نهر اللوار.

ما قبل المعركة

حشد الغافقي جيشًا يعد أكبر جيش أموي دخل الأندلس وغالية حتى ذلك الوقت. انطلق في البداية من سرقسطة نحو قطلونية، وهو أقرب أقاليم الأندلس إلى بلاد

الغال، فعمل على تقوية هذا الثغر والقضاء على الثوار فيه، ثم تحرك إلى سبتمانيا فعزز من وجود الحاميات فيه، وعاد بعدها إلى بنبلونة في شمالي أيبيريا، فانطلق منها وعبر ممر رونسفال في جبال المعابر، وكان هدفه أقطانيا، ومنها سار شمالاً ثم في الاتجاه الجنوبي الشرقي نحو آرل، فأعاد فتحها وحصّن المسلمين فيها، ثم عاد إلى أقطانية. كان أودو دوق أقطانيا قد جمع جيشًا قاتل به جيش الغافقي في معركة نهر الجارون، والتي انتصر فيها المسلمون، وسط خسائر كبيرة في الجيش الأقطاني. بعد هذه المعركة، افتتح الغافقي أقطانيا بالكامل، بما في ذلك مدينة بوردو عاصمتها. ثم واصل الغافقي إلى بواتييه فافتتحها، ثم تور الواقعة على نهر اللوار وافتتحها أيضًا.

رأى بعض المؤرخين أن الغافقي لم يكن ينوي التقدم أكثر من ذلك، بل كان ينوي تحصين المدن المفتوحة وتقويتها لتصبح ثغراً للمسلمين، كما هي الحال في سبتمانيا، ولم يكن معه من الجند ما يكفي لفتح مدن أكثر، بعد مسيرته طويلة في جنوب غالة وغربها، وقتاله في معركة نهر الجارون. دفعت انتصارات المسلمين في غالة شارل مارتلللتحرك لمواجهة جيش المسلمين، خاصة بعد أن لجأ إليه منافسه أودو بمن بقي معه من رجاله، ليساعده على استعادة أقطانيا ، فقبل شارل مساعدته على أن يكون ولاء أودو لدولة الفرنجة، فوافق أودو على ذلك.

جمع شارل مارتل جيشًا من المرتزقة ومقاتلين من حدود الراين ومن بورغانديا. كان عبد الرحمن قد وصل إلى تور بمن تبقى من جيشه، بعد معاركه في أقطانيا وقطلونيةوسبتمانيا أو الحاميات التي خلفها ورائه.

استدرج شارل مارتل جيش المسلمين المتحصن في تور إلى سهل يقع غرب رافد نهر اللوار، بأن أرسل شارل مجموعات صغيرة من طلائع جيشه إلى الضفة الشرقية للنهر، وعندما علم بأمرها عبد الرحمن، أرسل مجموعات للاستطلاع، عادت لتخبره بقلة عددهم وسهولة القضاء عليها، فخرج عبد الرحمن من المدينة لمواجهتها، وعبر بقواته إلى

الضفة الشرقية، فتحرك شارل بقواته باتجاه جيش المسلمين. وعندما فوجيء عبد الرحمن بأعداد أكثر مما قدرتها فرق استطلاعه ارتد بقواته إلى سهل بين توروبواتييه. تقدم شارل بقواته ونزل في مواجهة جيش الأمويين استعداداً للمعركة، وتحرك جيش الأمويين نحو الجنوب باتجاه بواتييه، بينما تجمع جيش شارل جهة الشمال باتجاه تور.

المعركة

لا تتفق المصادر على تاريخ بدأ وانتهاء المعركة وكم كانت مدتها، استمرت المناوشات بين الفريقين لأيام، إلى أن لجأ المسلمون للهجوم في اليوم الأخير بفرسانهم على جيش شارل، الذي تحمله مشاة جيش الفرنجة، وبدا كما لو أن المسلمون اقتربوا من النصر. إلا أن شارل أرسل فرقًا يعتقد أنها كانت بقيادة أودو هاجمت معسكر المسلمين من الخلف مما دفع المسلمين لمحاولة إنقاذ معسكرهم. حاول الغافقي ومن بقي من جنوده معه الثبات في القتال والسيطرة على الموقف بعد أن اضطربت صفوف المسلمين، وظل يقاتل حتى قُتل. ثم نجح بقية جيش المسلمين في الدفاع عن معسكرهم حتى نهاية اليوم، وفي الليل، اجتمع قادة الجيش ورأوا أن ينسحبوا ليلاً بعد أن فقدوا قائدهم عبد الرحمن الغافقي. وفي اليوم التالي، عندما وجد الفرنجة أن القتال لم يتجدد تخوفوا من أن يكون ذلك كمينًا، إلى أن استطلعت قواتهم مخيمات المسلمين التي تركوها وراءهم ووجدوها فارغة.

نتائج المعركة

لم تتوقف غزوات المسلمين في بلاد الغال رغم الهزيمة في المعركة، بل استمرت بعدها مباشرة، فأرسل الوالي الجديد عبد الملك بن قطن الفهري حملة يقودها يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي تحالف مع مورونتوس كونت بروفنس، غزت بلاد الغال

واجتاحت آرل، ثم مدينة سانت ريمي وأفينيون ، ثم تابع الوالي عقبة بن الحجاج السلولي تلك الغزوات فسيطر على بورغونية، حتى بلغت حملته بيدمونت بشمال إيطاليا. ثم انشغل ولاة الأندلس بمشاكلهم الداخلية وتكالبهم على السلطة، ففقدوا المناطق التي سيطروا عليها في بلاد الغال، الواحدة تلو الأخرى حتى لم يبق بأيديهم في عهد يوسف بن عبد الرحمن الفهري والي الأندلس الأخير سوى أربونة فقط، والتي سقطت نهائيًا عام ٧٥٩ م، عندما أمر عبد الرحمن الداخل بإجلاء المسلمين من المدينة. ومن ناحية أخرى، أنشأ شارلمان حفيد شارل مارتل بعد ذلك الثغر الإسباني في البرانس لتكون بمثابة منطقة عازلة عن مناطق المسلمين خلف البرانس.

المعركة في المصادر الإسلامية

ذكرت المصادر الإسلامية الأولية المعركة باقتضاب. فقد أشار إليها ابن عذاري قائلاً: «ثم ولي الأندلس عبد الرحمن هذا [يعني الغافقي] ثانية، وكان جلوسه لها في صفر سنة ١١٢ هـ، فأقام واليًا سنتين وسبعة أشهر وقيل وثمانية أشهر، واستشهد في أرض العدو في رمضان سنة ١١٤ هـ.» وقد نقل عن ابن حيان القرطبي في موضع آخر قوله: «ثم ولي الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، فغزا الروم، واستشهد مع جماعة من عسكره سنة ١١٥ هـ، بموضع يعرف ببلاط الشهداء. كما أشار إليها المقري في قوله: «ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي من قبل عبيد الله ين الحبحاب صاحب إفريقية، فدخلها سنة ثلاث عشرة، وغزا الإفرنجة، وكانت له فيهم وقائع، وأصيب عسكره في رمضان سنة أربع عشرة في موضع يعرف ببلاط الشهداء، وبه عرفت الغزوة.» كذا، قال عنها ابن عبد الحكم: «ولي عبد الرحمن بن عبد الله العكي على الأندلس، وكان رجلاً صالحًا، فغزا عبد الرحمن إفرنجة، وهم أقاصي عدو الأندلس، فغنم غنائم كثيرة، وظفر بهم، ... ثم خرج إليهم غازيًا، فاستشهد وعامة أصحابه، وكان قتله فيما حدثنا يحيى بن الليث في سنة خمس عشرة ومائة.

ووافقه في ذلك ابن الأثير. ولم يرد ذكرها يذكر في تواريخ الواقدي والبلاذري والطبري وهم من أقدم رواة الفتوح، شيئاً عن الموقعة

اختلاف الآراء حول المعركة

انقسمت الآراء التاريخية حول المعركة إلى ثلاث وجهات نظر. ففي الوقت الذي رأى فيه المؤرخون الغربيون كجيبون وجيله من المؤرخين الذين اعتمدوا على تأريخ عام ٧٥٤ وتأريخ فريدغر، بأن شارل مارتل أنقذ المسيحية، وأن المعركة بلا شك كانت حاسمة في تاريخ العالم. إلا أن المؤرخين المعاصرين قد انقسموا حول ذلك، إلى معسكرين. الأول يتفق مع جيبون، والآخر يقول بأن المعركة بُولغ فيها بشدة وتم تصويرها وكأنها نهاية عصر الغزو الإسلامي. بل وحتى المعسكر الأول الذي رأى أهمية المعركة التاريخية الكبيرة، اتخذ عدد منهم نهجًا أكثر اعتدالاً ودقة في وصف أهمية المعركة، بدلاً من الوصف الدراماتيكي الذي اتخذه جيبون. أبرز هؤلاء هو ويليام واتسون، الذي آمن بأهمية المعركة تاريخيًا، لكنه حللها عسكريًا وثقافيًا وسياسيًا، بدلاً من أن ينظر إليها من منظور الصراع الكلاسيكي بين المسلمين والمسيحيين. أما الآن، فقد انقسم المؤرخون الغربيون المعاصرون بشكل واضح على أهمية المعركة، وأين ينبغي أن تُصنّف في التاريخ العسكري.

آراء تضخم من أهمية المعركة

يقول المؤرخ إدوارد جيبون في كتابه "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية": «خط انتصار [المسلمين] طوله ألف ميل من جبل طارق حتى نهر اللوار كان غير مستبعد أن يكرر في مناطق أخرى في قلب القارة الأوروبية حتى يصل بالساراسنز [يقصد المسلمين] إلى حدود بولندا ومرتفعات أسكتلندا، فالراين ليس بأصعب مرورا من النيل والفرات، وإن

حصل ما قد ذكرت كنا اليوم سنرى الأساطيل الإسلامية تبحر في مصب التايمز بدون معارك بحرية ولكان القرآن يدرس اليوم في أوكسفورد ولكان علماء الجامعة اليوم يشرحون للطلاب باستفاضة عن الوحي النازل على محمد. »

لم يكن جيبون وحده الذي أثنى على شارل مارتل كمنقذ للمسيحية والحضارة الغربية، فقد قال هربرت جورج ويلز في كتابه "موجز تاريخ العالم": «عندما عبر المسلمون البرانس عام ٧٢٠، وجدوا مملكة الفرنجة تحت الحكم الفعلي لشارل مارتل رئيس بلاط قصر سلالة كلوفيس، الذي تحققت الهزيمة الساحقة في بواتييه عام ٧٣٢ على يديه. كان شارل مارتل هذا عمليًا سيد أوروبا في شمال جبال الألب من البرانس إلى هنغاريا، مترأسًا عدد كبير من الحكام الناطقين بالفرنسية اللاتينية، واللغات الألمانية العليا والمنخفضة.» ومن أنصار هذا المعسكر أيضًا المؤرخ البلجيكي غودفروا كورث، الذي كتب عن المعركة قائلاً: «يجب أن تظل هذه المعركة واحدة من أهم الأحداث الكبرى في تاريخ العالم، لأنها حددت ما إذا كانت الحضارة المسيحية ستستمر أم سيسود الإسلام جميع أنحاء أوروبا. » تحمس أيضًا على وجه الخصوص المؤرخون الألمان في مدح شارل مارتل؛ ومدح هذا النصر العظيم على حد وصف كارل فريدريش فيلهلم شليغل، الذي قال: «لقد حفظت سواعد شارل مارتل الأمم المسيحية الغربية من قبضة الإسلام المدمرة.» وقد نقل إدوارد كريزي رأي رانكه عن تلك الفترة قائلاً: «كانت أحد أهم الحقب في تاريخ العالم، فمع بداية القرن الثامن، عندما هددت المحمدية إيطاليا وبلاد الغال، وعدد من المناطق الوثنية القديمةكساكسونيا وفرايزلاند مرة أخرى عبر نهر الراين. وفي ظل هذا الخطر الذي هدد المجتمعات المسيحية، ظهر الأمير الشاب من أصل جرماني شارل مارتل، كبطلهم الذي حافظ عليهم بكل الطاقة الضرورية اللازمة للدفاع عن النفس، وفي النهاية، استطاع نشرهم في مناطق جديدة. »

كما قال المؤرخ العسكري الألماني هانس ديلبروك عن هذه المعركة: «لم يكن هناك معركة أكثر أهمية منها في تاريخ العالم. » كما أكد المؤرخ هنري هالام أنه لو لم يحتوِ شارل مارتل هجوم المسلمين، لما كان هناك شارلمان ولا الإمبراطورية الرومانية المقدسة أو حتى الدولة البابوية. وقد صنّف المؤرخ توماس أرنولد انتصار شارل مارتل بأنه أهم من انتصارأرمينيوس في تأثيره على كل التاريخ الحديث: «كان انتصار شارل مارتل في تور كان من بين أطواق النجاة التي أثرت لقرون في سعادة البشرية. » وقال لويس غوستاف وتشارلز شتراوس في كتابهما "المسلمون والفرنجة؛ أو شارل مارتل وإنقاذ أوروبا": «النصر الذي تم حاسم ونهائي، فتراجع سيل الغزو العربي إلى الوراء، وأنقذت أوروبا خطر نير المسلمون. » كما قال تشارلز أومان، في كتابه "تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى"، بأن: «في بواتييه، قاتل الفرنجة كما فعلوا قبل مئتي سنة في كاسيلينيوم، ككتلة واحدة صلبة، دون أن تنكسر صفوفهم أو يحاولوا المناورة. تحقق انتصارهم من خلال تكتيكات دفاعية بحتة باستخدام المشاة؛ محطمين العرب المتعصبين مرة بعد مرة إلى قطع، إلى أن هربوا في النهاية في ستار الليل. ولكن دون سعي من جهة كارل للسماح لرجاله بمطاردة العدو المكسور. » وكتب جون باغنيل بيري في مطلع القرن العشرين: «معركة تور... كثيرًا ما تصور كحدث من الدرجة الأولى لتاريخ العالم، لأنه بعدها، وصل تغلغل الإسلام في أوروبا في النهاية إلى طريق مسدود. » وقال المؤرخ الأمريكي ويليام واتسون عن أهمية المعركة أنها أوقفت جيوش المسلمين، وأبقت الحضارة الغربية بجذور المسيحية والتي ستكون سببًا في ازدهار الحضارة الغربية وتطورها. كما وصف الكاتب جون هنري هارين في كتابه "مشاهير رجال العصور الوسطى" المعركة قائلاً: «تعد معركة تور أو بواتييه كما ينبغي أن يطلق عليها، أحد المعارك الحاسمة في العالم. فهي التي جعلت المسيحيين، لا المسلمين، السلطة الحاكمة في أوروبا".»

آراء تقلل من أهمية المعركة

وعلى الجانب الآخر، رأى عدد من المؤرخين الغربيين، برأي المؤرخين المسلمين في أن المعركة لم تكن بتلك الأهمية. فقد قال برنارد لويس: «إن المؤرخين العرب، إذا ما ذكروا هذا الاشتباك

[يعني المعركة] بصفة عامة، يذكرون أنها كانت مناوشات طفيفة.» وكتب غوستاف جرونبوم: «هذه الانتكاسة قد تكون مهمة من وجهة النظر الأوروبية، ولكن بالنسبة للمسلمين في ذلك الوقت، لم يروا فيها أي خطة كبير، وبالتالي لم تكن لها أهمية أكبر من ذلك.» ذكر ابن عذاري المعركة في كتابه البيان المغرب، قائلاً: «ولي الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، فغزا الروم، واستشهد مع جماعة من عسكره سنة ١١٥ هـ، بموضع يعرف ببلاط الشهداء.» وقد أشار هنري كوبيه إلى أن نفس الاسم البلاط أطلق على معركة تولوز، والعديد من المعارك الأخرى التي هُزم فيها المسلمين. ويقول الإيطالي أليساندرو باربيرو: «يميل المؤرخون اليوم إلى التقليل من أهمية معركة بواتييه، حيث أن هدف القوات العربية التي هزمها شارل مارتل لم يكن فتح مملكة الفرنجة، ولكنه ببساطة لجمع الغنائم من دير سانت مارتن الغني في تور.» كذلك كتب توماز ماستناك: «لقد نسج المؤرخون المعاصرون أسطورة حول هذا الانتصار، بأنه الذي أنقذ أوروبا المسيحية من المسلمين. فإدوارد جيبون، على سبيل المثال، دعا شارل مارتل بمنقذ المسيحية وأن المعركة التي دارت قرب بواتييه غيرت تاريخ العالم ... وقد ظلت تلك الأسطورة حية بشكل جيد في عصرنا ... رغم أن المعاصرين للمعركة، لم يبالغوا في أهميتها. فتأريخ فريدغر، الذي كتب على الأرجح في منتصف القرن الثامن، صوّر المعركة كواحدة من العديد من المعارك بين المسيحيين والعرب المسلمين - بل باعتبارها واحدة من سلسلة حروب التي خاضها أمراء الفرنجة من أجل الغنائم والأراضي ... وصف تاريخ فريدغر معركة بواتييه كما هي بالفعل: حلقة في الصراع بين الأمراء المسيحيين مثل الكارولينجيون

الذين سعوا لضم أقطانيا تحت حكمهم. » كذلك يرى المؤرخ الإيطالي فرانكو كارديني في كتابه "أوروبا والإسلام"، قائلاً: «إنه من الحصافة أن تقلل من أهمية أو نفي الصفة الأسطورية لهذا الحدث، الذي لا يعتقد أي شخص الآن أنه كان حاسمًا. إن أسطورة النصر العسكري المميز تدخل اليوم في نطاق الكليشيهات الإعلامية، التي لا يصعب القضاء عليها. فمن المعروف جيدًا كيف نسج الترويج للفرنجة وتمجيد البابوية للنصر الذي تم في الطريق بين تور وبواتييه... »

وفي مقدمة كتابهما "رفيق القارئ إلى التاريخ العسكري" لخّص روبرت كاولي وجيفري باركر وجهة النظر الحديثة هذه عن المعركة، قائلين: «إن دراسة التاريخ العسكري شهدت تغيرات جذرية في السنوات الأخيرة. فلم يعد نهج الطبول والأبواق القديم فعّالا، حيث حظيت عوامل كالاقتصاد والخدمات اللوجستية والاستخبارات والتكنولوجيا بالاهتمام لتقييم المعارك والحملات والخسائر. واكتسبت كلمات مثل "استراتيجية" و"عمليات" معانٍ ربما لم تكن معروفة منذ جيل مضى. وقد غيرت الأبحاث الجديدة وجهات نظرنا ... على سبيل المثال، العديد من المعارك التي أدرجها إدوارد شيبرد كريزي عام ١٨٥١ في كتابه المشهور "أكثر خمسة عشر معركة حسمًا في العالم" نذكر منها هنا، المواجهة بين المسلمين والمسيحيين في بواتييه-تور عام ٧٣٢، التي كان ينظر إليها أنها حدثًا فاصلاً، خُفّضت إلى مجرد غارة. »

الجدل حول أعداد الجيشين

افترض معظم المؤرخين أن الجيشين التقيا عند ملتقى نهري كلين وفيين بين تور وبواتييه، ولا يعرف عدد الجنود في كلا الجيشين. وقد وصف تأريخ عام ٧٥٤ وهي وثيقة لاتينية معاصرة للمعركة، المعركة بتفصيل أكبر من أي مصدر لاتيني أو عربي آخر، حيث نصت على أن "شعب أوستراسيا [قوات الفرنجة]، الأكثر جندًا وتسليحًا بشكل

هائل، قتل الملك عبد الرحمن"، وهو ما يتوافق مع ما ذكره العديد من المؤرخين العرب والمسلمين. ومع ذلك، تختلف كل المصادر الغربية تقريبًا مع ذلك، فتقدّر قوات الفرنجة بحوالي ٣٠.٠٠٠ مقاتل، أي أقل من نصف عدد قوات المسلمين.

حاول المؤرخون المعاصرون تقدير أعداد الجيشين، اعتمادًا على تقدير ما العدد الذي تستوعبه أرض المعركة، وما العدد الذي يمكن لشارل مارتل أن يجمعه من مملكته ويضيف إليه خلال حملته، ومع تقدير أعداد قوات المسلمين، وما لحق بها من أعداد قبل تور، لتفوق بكثير أعداد الفرنجة، وبالاستناد إلى مصادر إسلامية غير معاصرة للمعركة. قدّر كريسي قوات المسلمين بحوالي ٨٠.٠٠٠ مقاتل أو أكثر. وفي عام ١٩٩٩، قدّر المؤرخ بول ديفيس قوات المسلمين بحوالي ٨٠.٠٠٠ والفرنجة في حوالي ٣٠.٠٠٠، وأشار بأن المؤرخين الحديثين قدروا قوات الجيش الأموي في تور ما بين ٢٠.٠٠٠–٨٠.٠٠٠ مقاتل. وقد رفض المؤرخ إدوارد شونفيلد التقديرات القديمة بأن أعداد الأمويين بين ٦٠.٠٠٠–٤٠٠.٠٠٠ والفرنجة ٧٥.٠٠٠، قائلاً: «إن تقدير عدد الأمويين بأكثر من خمسين ألف جندي (وبأن الفرنجة كانوا أكثر) مستحيل لوجستيًا.» وأيد ذلك، المؤرخ فيكتور ديفيس هانسون الذي اعتقد بأن الجيشين كانا تقريبًا بنفس الحجم حوالي ٣٠.٠٠٠ رجل.

قد يكون المؤرخون الحديثون أكثر دقة من مصادر القرون الوسطى، حيث استندوا على تقديرات القدرات اللوجستية في المناطق الريفية المجاورة التي تكفي هذه الأعداد من الرجال والحيوانات. واتفق ديفيس وهانسون على كون وجوب اعتماد الجيشين على الريف المجاور، حيث لم يكن لديهما أنظمة كافية لتوفير الإمدادات اللازمة للحملتين. وقد قدّرت مصادر أخرى كغور الذي قدّر الجيش الفرنجي بين ١٥.٠٠٠–٢٠.٠٠٠، بينما قدّره آخرون ما بين ٣٠.٠٠٠–٨٠.٠٠٠. وعلى الرغم من اختلاف تقدير قوات المسلمين بتفاوت كبير، إلا أن غور قدره ما بين ٢٠.٠٠٠–٢٥.٠٠٠، فيما زادته تقديرات أخرى إلى نحو ٨٠.٠٠٠ رجل.

خسائر المعركة غير معروفة، غير أن بعض المؤرخين بعد ذلك زعموا بأن قوات شارل مارتل خسرت حوالي ١.٥٠٠، بينما منيت قوات المسلمين بخسائر ضخمة تصل إلى ٣٧٥.٠٠٠ رجل. وقد ذكرت تلك الأرقام في كتاب الباباواتالذي يروي انتصار أودو دوق أقطانيا في معركة تولوز. وقد صحّح بولس الشماس في كتابه تاريخ اللومبارد (الذي كتبه حوالي عام ٧٨٥) أن هذا التأريخ دون تلك الأعداد كونها أعداد خسائر معركة تولوز (وزعم أيضًا أن شارل مارتل قاتل في تلك المعركة جنبًا إلى جنب مع أودو)، ولكن الكتاب اللاحقين، الذين ربما تأثروا بتأريخ فريدغر، نسبوا خسائر المسلمين فقط لشارل مارتل، وأصبحت المعركة التي وقعت فيها تلك الخسائر معركة بواتييه بلا شك. كما ذكر تأريخ حياة باردولف المكتوب في منتصف القرن الثامن، أن قوات عبد الرحمن حرقت ونهبت ما في طريقها إلى ليموزين في طريق عودتهم إلى الأندلس، مما يعني أن الجيش لم يدمر إلى الحد الذي صوره تأريخ فريدغر.

سقوط الأندلس

هي فترة في تاريخ شبه الجزيرة الايبيرية، والتي تمتد ما يقرب من ٧٧٠ عاما بين المرحلة الأولى من الفتح الإسلامي للأندلس في ٧١٠ وسقوط غرناطة، آخر دولة إسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية، حيث أدت إلى توسيع الممالك المسيحية في عام ١٤٩٢. و انتهى *الاسترداد* فورا قبل إعادة اكتشاف الأوروبيين الأمريكتين—و"العالم الجديد" - الذي بشر به في عهد البرتغالية و الإمبراطوريات الاستعمارية الإسبانية.

المؤرخون يضعون بداية تقليدية من وقت *الاسترداد* مع معركة كوفادونجا (٧١٨ أو ٧٢٢)، حيث قام جيش مسيحي صغير، بقيادة النبيل بيلاجيوس،الذى هزم جيش الخلافة الأموية في جبال شمال أيبيريا وأنشأت إمارة المسيحية في أستورياس.

المفهوم والفترة الزمنية

التأريخ الكاثوليكي، الإسبانية، والبرتغالي ، من بدايات الدراسات التاريخية حتى القرن العشرين، قد أكد وجود ظاهرة مستمرة التي تصف كيف أن الممالك المسيحية الإيبيرية عارضت واحتلت الممالك الإسلامية، على إفتراض أنها العدو المشترك الذي كان قد استولى عسكريا على الأراضي المسيحية. مفهوم الاستعادة المسيحية في شبه الجزيرة ظهرت لأول مرة، في شكل واهي، في نهاية القرن التاسع الميلادى. تم تعيين معلما من قبل المسيحيين *كرونيكا* بروفيتيكا (٨٨٣-٨٨٤)، وثيقة تشدد على أن المسيحية والانقسام الثقافي والديني الإسلامي في أيبيريا كانا ضروريين لدفع المسلمين للخروج.

ومع ذلك، لم يكن ينظر إلى الفرق بين المسيحية والممالك الإسلامية في وقت مبكر من اسبانيا في القرون الوسطى في ذلك الوقت أي شيء مثل معارضة واضحة المعالم التي ظهرت في وقت لاحق. خاض كل من الحكام المسيحيون والمسلمون المعارك فيما بينهم. وكانت التحالفات بين المسلمين والمسيحيين من غير المألوف. كانت الفروق تتسم بعدم وضوح أكثر من ذلك أن المرتزقة من كلا الجانبين الذين قاتلوا ببساطة لمن يدفع أكثر. وبدت تلك الفترة واحدة من التسامح الديني النسبي.

الحروب الصليبية، والتي بدأت في أواخر القرن الحادي عشر، ولدت الأيديولوجية الدينية لاستعادة المسيحية، التى واجهت في ذلك الوقت مع المسلمين جهادا أيديولوجيا قويا بالمثل في الأندلس: في المرابطين وحتى إلى درجة أكبر، في الموحدين. في الواقع أن الوثائق السابقة (القرن ١٠-١١) كانت خلوا من أي فكرة تتناول "الاستعادة". جاء حسابات الدعاية المروجة للعداء الإسلامي- المسيحي الى حيز الوجود لدعم هذه الفكرة، وأبرزها نشيد رولاند، على بعد القرن ١٢th النسخة الفرنسية وهمية من معركة ممر رونسفال التعامل مع الايبيرية *المسلمون* و(*المغاربة*)، وتدرس بالتاريخية في النظام التعليمي الفرنسي منذ عام ١٨٨٠.

العديد من المؤرخين مؤخرا يشككون في كامل مفهوم *الاسترداد* كمفهوم خلق في خدمة أهداف سياسية لاحقة . وقد وصفته بأنه "أسطورة". واحدا من أول المثقفين الاسبان للتشكيك في فكرة "الاستعادة" الذي يستمر لمدة ثمانية قرون كان خوسيه اورتيغا إي غاسيت، الذى كتب ذلك في النصف الأول من القرن العشرين. ومع ذلك، فإن مصطلح لا يزال له استخدام واسع.

الخلفية

الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الايبيرية المسيحي

للمزيد من المعلومات: الفتح الإسلامي للأندلس و معركة وادي لكة

عبر المغاربة المسلمين فى ٧١١. لا سيما في شمال أفريقيا مع الجنود البربر والعرب، عبروا مضيق جبل طارق وبدأو غزوهم ل مملكة القوط الغربيين هيسبانيا. بعد غزوهم للأراضي الايبيرية في مملكة القوط الغربيين، عبر المسلمين جبال البرانس وسيطروا على سبتمانيا في ٧١٩، المقاطعة الأخيرة من مملكة القوط الغربيين إلى أن احتلت. من معقلهم في ناربون، فإنها شنت غارات في دوقية من بوردو.

في أي نقطة لم تتجاوز الجيوش الإسلامية الغازية ٦٠،٠٠٠ من الرجال. رسخت هذه الجيوش حكما إسلاميا أستمر ٣٠٠ سنة في معظم شبه الجزيرة الايبيرية و ٧٧٠ سنة في غرناطة.

بداية سقوط الأندلس

يرى المؤرخون الأسبان والمسلمون أنه في ٧١٨ بدأت حركة الإسترداد المسيحية وذلك في معركة كوفادونجا أو مغارة دونجا وفيها انهزم ابن علقمة اللخمي شر هزيمة من قوات "بلايه"، وانتهت بتأسيس أولى الإمارات الفرنجية في شمال أيبيريا.

معركة بلاط الشهداء

جمع عبد الرحمن الغافقي جيشه وخرج باحتفال مهيب ليعبر جبال البرانس واتجه شرقاً ليضلل المسيحيين عن وجهته الحقيقية، فأخضع مدينة "أرل" التي خرجت عن طاعة المسلمين، ثم اتجه إلى "دوقية"، فانتصر على الدوق انتصاراً حاسماً، ومضى الغافقي في طريقه متتبعاً مجرى نهر "الجارون" فاحتل "بردال" واندفع شمالاً ووصل إلى مدينة "بواتييه". في بداية غزو جنوب فرنسا. دققت بها أودو العظيم في معركة تولوز في ٧٢١ تراجعت وتجميعهم، تلقى التعزيزات. ولم يجد الدوق "أودو" بدا من الاستنجاد بالدولة الميروفنجية، وكانت أمورها في يد شارل مارتل، بعد الغزو كان شارل مارتل هزم في معركة جولات في ٧٣٢ تدعى معركة بلاط الشهداء وقعت ١٠ أكتوبر عام ٧٣٢ م بين قوات المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي وقوات الإفرنج بقيادة قارلة (أو تشارلز/ كارل مارتل). هُزم المسلمون في هذه المعركة وقتل قائدهم وأوقفت هذه الهزيمة الزحف الإسلامي تجاه قلب أوروبا وحفظت المسيحية كديانة سائدة فيها.

الاستيلاء على طليطلة

بعد أن ظلت الدولة الإسلامية في الأندلس بضعا من الزمن متماسكة موحدة، بدأت تقام ممالك فرنجية في شمال إسبانيا المحررة مثل ممالك "قشتالة" و"اراجون" و"مملكة ليون" و"الباسك". قامت دولة بني ذي النون في "توليدو" (طليطلة) وبدأ صراع مع ملك "سرقسطة" ابن هود. ولجأ الطرفان يطلبان مساعدة ملوك إسبانيا المسيحيين. وكان هؤلاء يساعدون المسلمين على بعض، مقابل الحصول على مال أو قلاع أو اراضٍ أو مدن. واستمر النزاع بين طليطلة وسرقسطة من ١٠٤٣ إلى ١٠٤٦م. وبعد فترة صراعات داخل البيت القشتالي -انتهى بوحدة مملكتي قشتالة وليون تحت صولجان "الملك الفونسو السادس"- وبعد أن استتب له الأمر، فرض الحصار على "توليدو" في ١٠٨٤م. ولم يقم

أحد بمساعدة إخوانهم المسلمين إلا "المتوكل ابن الأفطس" الذي أرسل جيشا كبيرا لنجدة توليدو، لكنه تعرض لهزيمة ساحقة ماحقة من الجيش المسيحي. واستمر الحصار ٩ شهور، إلى أن استبد الجوع بالناس ولم تفلح محاولات المسلمين في الوصول لتسوية. لم يرضَ الفونسو سوى بتسلم المدينة كاملة، وفعلا تم ذلك في ٢٥ مايو ١٠٨٥م، وتوجه إلى المسجد الكبير الذي حوله إلى كاتدرائية وصلى فيه قداس الشكر. وصارت العاصمة لمملكة قشتالة الفرنجية وتم الاستيلاء عليها. وتم منح المسلمين الحرية كاملة لمغادرة المدينة أو البقاء فيها وحرية التصرف في أملاكهم.

نهاية الممالك الإسلامية في الأندلس

قام المسيحيون بشن حروب لإعادة أيبيريا لهم في قرطبة ١٢٣٦ و اشبيلية ١٢٤٨ نهاية بسقوط دولة بني الأحمر في غرناطة سنة ١٤٩٢

اتحدت مملكة ليون وقشتالة مع مملكة أراجون واستطاع الملك فيرنانديو والملكة إيزابيلا، استرجاع المدن الأيبيرية الواحدة تلو الأخرى إلى أن سقطت في أيديهم غرناطة آخر قواعد المسلمين سنة ١٤٩٢.

ما بعد السقوط

سلم أبو عبدالله الصغير غرناطة بعد صلح عقده مع فيرناندو يقتضي بتسليم غرناطة وخروج أبو عبدالله الصغير من الأندلس، ولكن سرعان ما نقض هذا الأخير العهد. وبدأت محاكم التفتيش في التعذيب والقتل والنفي، وبدأت هنا معاناة أهل الأندلس من المسلمين ومن اليهود فقد كانت محاكم التفتيش تجبرهم على التنصير أو الموت وقد تمسك أهل الأندلسبالإسلام ورفضوا الاندماج مع المجتمع النصراني. وحسب الرواية القشتالية الرسمية. لم يُبد الأندلسيون رغبة في الاندماج في المجتمع

النصراني وبقوا في معزل عنه. يقومون بشعائرهم الإسلامية ويدافعون عنها بكل تفان. وحتى لا يصطدموا بمحاكم التفتيش لجأوا إلى ممارسة التقية فأظهروا النصرانية وأخفوا الإسلام. فكانوا يتوضؤون. يصلون ويصومون... كل ذلك خفية عن أعين الوشاة والمحققين.

يتحدث مول في كتابه عن قرية مويل Muel، فيصف كيف يصنع سكانها الأندلسيون الخزف ويُضيف :"قالوا لي إن القرية ليس بها سوى ٣ مسيحيين قدامى هم الكاتب الشرعي. والقسيس وصاحب الحانة..أمّا الباقون فهم يُفضّلون الذهاب إلى مكة للحج عن السفر إلى كنيسة سانتياغو في جليقية" .

سنة ١٦٠١م. كتب المطران ربيرا. مهندس قرار الطرد. تقريرا عن الوضع قدمه إلى الملك. وقال فيه:"إن الدين الكاثوليكي هو دعامة المملكة الإسبانية. وإن المورسكيين لا يعترفون ولا يتقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الأخيرة. ولا يأكلون لحم الخنزير. ولا يشربون النبيذ. ولا يعملون شيئا من الأمور التي يقوم بها النصارى..." ثم يضيف:"إننا لا نثق في ولائهم لأنهم مارقون. وإن هذا المروق العام لا يرجع إلى مسألة العقيدة. ولكنه يرجع إلى العزم الراسخ في أن يبقوا مسلمين. كما كان آباؤهم وأجدادهم. ويعرف مفتشو العموم أن المورسكيين -بعد أن يحجزوا عامين أو ثلاثة وتشرح لهم العقيدة في كل مناسبة- فإنهم يخرجون دون أن يعرفوا كلمة منها. والخلاصة أنهم لا يعرفون العقيدة. لأنهم لا يريدون معرفتها. ولأنهم لا يريدون أن يعملوا شيئا يجعلهم يبدون نصارى" . وفي تقرير آخر يقول المطران نفسه:"إن المورسكيين كفرة متعنتون يستحقون القتل. وإن كل وسيلة للرفق بهم فشلت. وإن أسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها إلى أخطار كثيرة وتتكبد في رقابتهم والسهر على حركاتهم وإخماد ثوراتهم كثيرا من الرجال والمال.." .

وجاء في قرار الطرد الخاص بمسلمي بلنسية: " ...قد علمت أنني على مدى سنوات طويلة حاولت تنصير مورسكيي هذه المملكة و مملكة قشتالة. كما علمت بقرارات العفو

التي صدرت لصالحهم والإجراءات التي اتخذت لتعليمهم ديننا المقدس. وقلة الفائدة الناتجة من كل ذلك. فقد لاحظنا أنه لم يتنصر أحد. بل زاد عنادهم .

موقف ملوك وسلاطين الممالك الإسلامية من سقوط غرناطة

موقف سلاطين بني مرين

كان مسلمو الأندلس كلما اشتد بهم الأمر استنجدوا بملوك المغرب، لا سيما ملوك بني مرين الذين ساروا على نهج المرابطين، والموحدين الذين كانوا ينهضون للتدخل لحماية الأندلس كلما ضاق الأمر بأهلها.

فالسلطان المريني أبو يوسف المنصور (٨١٥ هـ/ ١٢٨٦م) مثلا، عبر إلى الأندلس أربع مرات لإغاثة أهلها. ووصلت جيوشه إلى طليطلة، وقرطبة. بل إلى مدريد وهي قريبة من آخر معقل وصل إليه الإسلام في الأندلس. فساهم بذلك في إنقاذ غرناطة من الانهيار السريع أمام ضربات ملوك قشتالة وأرغون.

لكن رغم الجهود التي بذلها بنو مرين لحماية الأندلس، فإنهم لم يتمكنوا من تحقيق انتصارات ساحقة، كتلك التي حققها المرابطون في معركة الزلاقة، والموحدون في معركة الأرك. والسبب في ذلك يرجع إلى أن المرينيين كانوا يقاتلون بإمكانياتهم الذاتية فقط، بينما كان المرابطون والموحدون يقاتلون بإمكانيات المغرب العربي كله.

ومهما يكن من أمر، فإن بني مرين ساهموا في دور فعال في حماية الأندلس قبل أن يدخلوا في دوامة من الفوضى والاضطراب، والحروب الداخلية ضد منافسيهم من جهة، وضد جيرانهم من جهة ثانية. بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية المزرية التي كان يمر بها المغرب في هذه الفترة من تاريخه على وجه الخصوص، والتي حالت دون تمكن المرينين، أو الوطاسيين من إنقاذ الأندلس، بل جعلتهم عاجزين حتى عن حماية سواحلهم من الاحتلال الإسباني والبرتغالي.

يقول المؤرخ الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل الحنفي الذي زار شمال إفريقيا في مطلع القرن السادس عشر، وعاين أوضاع المغرب في هذه الفترة : «...ووقع بفاس وأعمالها خطوب، وحروب، وفتن، وأهوال، وفساد عظيم، وخراب بلاد، وهلاك عباد. وأخذت الفرنج في تلك الفترات عدة مدن من منابر العدوة. مثل طنجة، وأصيلا وغير ذلك.. ولا زالت الفتن والشرور قائمة مستصحبة بتلك البلاد مدة سنين، بل إلى يومنا هذا...»

ومنذ أن كانت الحواضر الأندلسية تتهاوى أمام ضربات الإسبان ورسائل الاستغاثة تتوالى من أهل الأندلس على ملوك المغرب، لكن هؤلاء كانوا أعجز من أن يقوموا بتقديم عون جدي لمسلمي الأندلس.

يقول المؤرخ الأندلسي المجهول الذي عاصر مأساة غرناطة :«...إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم، فلم يأتنا أحد منهم، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا، وعدونا قد بنى علينا وسكن، وهو يزداد قوة، ونحن نزداد ضعفا، والمدد يأتيه من بلاده، ونحن لا مدد لنا...»

موقف السلاطين الحفصيين

وكما كان أهل الأندلس يستغيثون بملوك المغرب، فإنهم كانوا يلجئون إلى ملوك بني حفص. خصوصا عندما لا يجدون من ملوك المغرب أذانا صاغية. فمن ذلك أنه عندما سقطت بلنسية، أرسل أهلها إلى أبي زكريا الحفصي يستمدون منه النجدة والمدد. وجعلوا على رأس بعثتهم شاعرهم ابن الأبَّار القُضاعي الذي ألقى بين يديه قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها قد درسا

ولم تكن بلنسية وحدها هي التي بايعت أبا زكريا الحفصي، وطلبت منه المدد. بل قد بايعه كذلك أهل إشبيلية، وأهل المريَّة. إلا أن موقف أبي زكريا الحفصي من استنجاد أهل الأندلس لم يكن يتناسب مع خطورة الوضع. ذلك لأنه لم يكن يملك القوة الكافية التي تمكنه من إنقاذ الأندلس التي كانت ظروفها تقتضي اقتحام الحفصيين للأندلس، والقضاء على رؤوس الفتنة من ملوك الطوائف. وهو ما لم يكن يقدر عليه أبو زكريا الحفصي. ولذلك اكتفى بإرسال أسطول مشحون بالطعام والسلاح والمال. لكن هذا المدد لم يصل إلى المحصورين في بلنسية. كما أرسل بمدد آخر أثناء حصار إشبيلية، لكن المدد استولى عليه العدو، كما استولى على إشبيلية فيما بعد.

وأثناء حصار غرناطة، أو بعد سقوطها لم نجد فيما رجعنا إليه من المصادر ما يدل على أن أهل الأندلس استغاثوا بأمراء بني حفص. ولعل ذلك راجع إلى أن الدولة الحفصية كانت تعيش أخريات أيامها، ولم يكن بمقدور أمرائها أن يقدموا أي جهد جدي لدعم مسلمي الأندلس.

خصوصا إذا علمنا أن سواحل تونس نفسها لم تنج من الاحتلال الإسباني. أضف إلى ذلك أن الجيش الحفصي الذي كان ذات يوم يعتبر من أفضل جيوش شمال إفريقيا، قد تحلل وأصبح عاجزا عن مقاومة أي عدو. بل فقد سيطرته حتى على الأعراب الذين كانوا يعيثون فسادا في البوادي، وأطراف المدن، الأمر الذي جعل الملوك الحفصيين يستعينون بالمرتزقة من الجنود الإيطاليين والإسبان والزنوج وغيرهم.

موقف ملوك الدولة الزيانية

لم تكن أحداث الأندلس بعيدة عن اهتمامات ملوك بني زيان. ذلك لأن أهل الأندلس كانوا يلجئون إلى الزيانيين مستنجدين بهم عندما تضيق بهم السبل. فمن ذلك أنه عندما

ضيق الإسبان الخناق على غرناطة أستصرخ ملكها أبو عبد الله بأبي حمو الزياني، بقصيدة من نظم الشيخ الفقيه أبي البركات محمد بن أبي إبراهيم البلفيقي مطلعها :

هل من مجيب دعوة المستنجد أم من مجير للغريب المفرد

وبرسالة من إنشاء الوزير لسان ابن الخطيب يذكر فيها أنهم :"... لم يعانوا منذ أن فتحت الأندلس شدة، وضيقا أشدّ مما هم عليه الآن. وذكر بأن ملك النصارى جمع لهم جيوشا من سائر الأمم النصرانية. وأنهم قاموا بإحراق الزروع. والمسلمون ليس لهم مغيث يلجأون إليه – بعد الله – سوى إخوانهم في الدين. وذكر بأنهم كانوا قد أعلموا المرينيين بهذا الخطر، وأنهم يقومون بما يقدرون عليه من دعم ومساندة. وأنهم لا يملكون غير أنفسهم، وقد بذلوها في سبيل الله. وهم ينتظرون نجدتكم ". فقام أبو حمو الزياني بإرسال الأحمال العديدة من الذهب والفضة، والخيل، والطعام. وبفضل هذا المدد أمكن لأهل غرناطة أن يثبتوا للدفاع عن مدينتهم فترة أطول.

وكما كانت أوضاع الحفصيين، والمرينيين، ثم الوطاسيين لا تؤهلهم للدفاع عن بلادهم، فضلا عن إنقاذ الأندلس، كانت المملكة الزيانية تعيش نفس الظروف المتدهورة. ولذلك تعذر على ملوكها تقديم أي دعم جدي لأهل غرناطة أو غيرها. وسوف يتبين لنا لاحقا أن المملكة الزيانية كانت أضعف من أن تساهم في إنقاذ الأندلس.

موقف سلاطين دولة المماليك في مصر

في أواخر القرن الخامس عشر، أرسل مسلمو غرناطة إلى الملك الأشرف قايتباي (١٤٦٨-١٤٩٦) سلطان المماليك بمصر، يرجونه التدخل لإنقاذهم من ظلم ملوك المسيحيين. فاكتفى الأشرف بإرسال وفود إلى البابا، وإلى ملوك أوروبا يذكرهم بأن المسيحيين في دولته يتمتعون بكافة الحريات، بينما إخوته في الدين في مدن إسبانيا يتعرضون لشتى ألوان الاضطهاد. وهدد على لسان مبعوثيه بأنه سوف يتبع سياسة المعاملة

بالمثل، وهي التنكيل بالمسيحيين إذا لم يكفَّ ملوك إسبانيا عن اضطهاد المسلمين. وطالب بعدم التعرض لهم، ورد ما أُخِذ من أراضيهم.

لكن الملك فرديناندو، والملكة إيزابيلا لم يريا في مطالب سلطان المماليك وتهديده ما يحملهما على تغيير خطتهما في الوقت الذي كانت فيه قواعد الأندلس تسقط تباعا في أيديهما. إلا أنهما بعثا إليه رسالة مجاملة ذكرا فيها : " أنهما لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين، والنصارى. ولكنهما لا يستطيعان صبرا على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب. وأن المسلمين إذا شاءوا الحياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية..".

لم يتمكن الباحثون من معرفة مصير هذه الرسالة، كما أنه لا يلاحظ في سياسة مصر المملوكية نحو الرعايا المسيحيين في مصر، أو في القدس ما يدل على أن السلطان المملوكي قد نفذ تهديده.

ويبدو أن السلطان قايتباي لم يتمكن من إغاثة مسلمي الأندلس بسبب انشغاله بتحركات بايزيد ورد غاراته المتكررة على الحدود الشمالية. بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية التي كانت تثور هنا وهناك. ومن ثم فإن الجهود المصرية وقفت عند الاكتفاء بالجهود الديبلوماسية. وتركت الأندلس تواجه قدرها بنفسها.

كرر الأندلسيون استغاثتهم بالملك الأشرف قانصو الغوري (١٥٠١-١٥١٦) سلطان مماليك مصر والشام. داعين إياه أن يتوسط لدى الملكين الكاثوليكيين (فرديناندو وإيزابيلا) لاحترام معاهد الاستسلام، ووقف أعمال الاضطهاد ضدهم. فأرسل الغوري وفدا إلى الملكين يبين لهما أنه سوف يجبر النصارى المقيمين في بلاده على الدخول في الإسلام، إذا لم تراع الاتفاقات السابقة بينهما وبين المسلمين. لكن فقهاء المسلمين عارضوا معاملة الرعايا المسيحيين بالمثل، محتجين بأن الإسلام لا يكره أحدا على

الدخول فيه) فأرسل إليه الملكان سفيرا أقنعه بأن المسلمين يعاملون معاملة حسنة. وأن لهم نفس الحقوق التي يتمتع بها الإسبان.

وهكذا خابت آمال المسلمين الأندلسيين في تلقي أي دعم أو مدد من سلطان المماليك قانصو الغوري الذي يبدو أنه كان مشغولا هو الآخر حروبه مع العثمانيين، إضافته إلى كونه لا يملك أسطولا قويا يمكنه من مواجهة الإسبان أقعدته عن إغاثة الأندلسيين.

وقد وفرت مصر المملوكية مأوى كريم للاجئين مثل العلامة إبن خلدون وغيره من الأندلسيين.

موقف السلطان محمد الفاتح

أرسل أهل غرناطة في منتصف سنة ١٤٧٧ - أي قبل سقوط غرناطة بأربعة عشر عاما - سفارة على إستانبول، وجهوا فيه نظر السلطان محمد الفاتح إلى تدهور أوضاع المسلمين في الأندلس، وناشدوه التدخل لإنقاذهم. لكن كان في حكم المستحيل أن يستجيب السلطان الفاتح لهذه الاستغاثة، لأنه كان هو الآخر مضطرا إلى مواجهة تحالف صليبي ضم البابا سكست الرابع (TX. Sixte 1471-1484)، وجنوة، ونابولي، والمجر، وترانسلفانيا، وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس، وعددا من الزعماء الألبان الذين كانوا يضمرون عداء شديدا للدولة العثمانية.

موقف السلطان بايزيد الثاني

ثم استنجد الأندلسيون مرة أخرى بعد وفاة الفاتح بابنه السلطان بايزيد الثاني (١٤٨٠-١٥١١)، إلا أن السلطان بايزيد كانت قد تزاحمت عليها أزمات داخلية وخارجية كثيرة منعته من إغاثة مسلمي الأندلس منها : صراعه مع أخيه جم (١٤٨١-١٤٩٥)، وحربه مع المماليك في أدنة سنة ١٤٨٥-١٤٩١، بالإضافة إلى الحرب مع ترانسلفانيا، والمجر،

والبندقية. ثم تكوين تحالف صليبي آخر ضد الدولة العثمانية من طرف البابا يوليوس الثاني، وجمهورية البندقية، والمجر، وفرنسا. وما أسفر عن هذا التحالف من حرب أدت إلى تنازل العثمانيين عن بعض ممتلكاتهم. وانتهى حكم السلطان بايزيد بصراع بين أبنائه، أضفى إلى تنحيته عن العرش، ثم موته في ظروف مشبوهة.

لكن رغم الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية في هذه الفترة الحرجة من تاريخها، فإن السلطان بايزيد لم يهمل استغاثة أهل الأندلس، بل حاول أن يقدم لهم ما يستطيعه من أوجه الدعم والمساندة.فأرسل إلى البابا رسولا يعلمه بأنه سوف يعامل المسيحيين في إستانبول، وسائر مملكته بنفس المعاملة إذا أصر ملك قشتالة على الاستمرار في محاصرة المسلمين في غرناطة ،والتضييق عليهم. وبالفعل أرسل أسطولا بحريا بقيادة كمال رئيس إلى الشواطئ الإسبانية سنة١٤٨٦. فقام هذا الأخير بإحراق وتخريب السواحل الإسبانية والإيطالية ومالطا ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين واليهود إلى تركيا. وحسب رواية أخرى- لم نتمكن من التأكد من صحتها - فإن السلطان الحفصي عبد المؤمن بعد نجاح وساطته في عقد صلح بين الدولة العثمانية ودولة المماليك، تم عقد اتفاق آخر على تحالف بين الحفصيين والعثمانيين والمماليك لدعم مسلمي الأندلس. وكان الاتفاق يقضي بأن يرسل العثمانيون أسطولا إلى سواحل إيطاليا تكون مهمته إلهاء الإسبان ؛ بينما يستغل القرصة ويقوم المماليك بإرسال قوات تنطلق من شمال إفريقيا إلى الأندلس لنجدة المسلمين هناك.

وهكذا بسبب المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، لم يتمكن العثمانيون في عصر بايزيد، وقبل ذلك في عصر الفاتح من إغاثة مسلمي الأندلس، كما أن التهديدات، والغارات التي شنها كمال رئيس على السواحل الإسبانية لم تثن الملكين الإسبانيين عن قرار إنهاء الوجود الإسلامي من إسبانيا المسيحية. وبهذه المواقف التي رأيناها يتضح لنا أن سقوط غرناطة وضياع الفردوس المفقود ارتبط بعدد من الأسباب

التي كان يمر بها العالم الإسلامي وقتها. وضياع غرناطة، وما تبعه من طرد المسلمين كان نتيجة متوقعة في ضوء الأحداث التي مرت بها الأمة.

وثيقة إنجليزية تكشف كيفية سقوط غرناطة

كشف الدكتور خوسيه غوميث سولينيو في المؤتمر الثامن عشر للغة والأدب والمجتمع الأسباني الذي اختتم أخيرا في مدينة مالقة، جنوب إسبانيا، عن عثوره على وثيقة إنجليزية تؤكد ان سقوط غرناطة الإسلامية والحصار الذي عانت منه المدينة «كان أكثر شراسة مما هو معروف حتى الآن». ومدى الترف والابهة التي تميزت بها القصور الغرناطية والبلاط الملكي، واثر الحصار الذي فرضته القوات الأسبانية على اهالي مدينة غرناطة، حتى اضطرهم إلى أكل الكلاب والقطط، ويخلص إلى ان العرب دفعوا ثمنا باهظا للغاية بسقوط آخر جوهرة لهم في أوروبا.

ويذكر المؤلف ان عدد القوات التي حاصرت غرناطة كان أكبر بكثير من عدد القوات الغرناطية، مخالفا بذلك الرواية المتواترة من أن جيش غرناطة كان كبيرا، وتضيف الوثيقة ان «اهالي غرناطة مروا بمعاناة قاسية خلال اعوام الحصار، وقامت القوات الأسبانية بتحطيم وحرق الحقول المجاورة للمدينة، ما تسبب في مجاعة رهيبة بين سكان غرناطة، ولهذا السبب اكلوا الخيول والكلاب والقطط».

وتتعرض الوثيقة أيضا للكنوز الهائلة التي حصل عليها الأسبان بعد الفتح «ففي مسجد غرناطة كان هناك ٣٠٠ مصباح من الذهب والفضة.. وعثر ملك إسبانيا على كميات هائلة من الذهب وبها بنى الكنيسة مكان المسجد».

ويذكر المؤلف الإنجليزي ان «الملك فرناندو لم يسمح للمسلمين الا بما يستطيع كل واحد منهم ان يحمله على ظهره من حاجات، ما عدا الذهب والفضة والسلاح»، ولهذا فان

الجيش الأسباني وجد عند دخوله المدينة الآلاف من الأسلحة من سيوف ودروع ومناجيق.

ويشير الدكتور غوميث سولينيو إلى ان الوثيقة تذكر ان افتتاح غرناطة تم عام ١٤٩١، والصحيح هو ١٤٩٢، والسبب هو ان السنة الجديدة لدى الإنجليز كان تبدأ في ٢٥ مارس (آذار) وليس الأول من شهر يناير (كانون الثاني).

ويختتم الدكتور غوميث سولينيو بحثه حول تبعات سقوط غرناطة فيقول ان انهيار الحكم العربي في هذه المدينة كان له صدى كبير وواسع جدا ليس فقط في إسبانيا وانما في كل أوروبا، فأقيمت الصلوات في العديد من المناطق.



الفصل الثاني

أهم أمراء وخلفاء الدولة الأموية

في الأندلس

عبد الرحمن الداخل

أبو المطرَّف عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي القرشي (١١٣ - ١٧٢ هـ / ٧٣١ - ٧٨٨ م) المعروف بلقب **صقر قريش** و**عبد الرحمن الداخل**، والمعروف أيضًا في المصادر الأجنبية بلقب **عبد الرحمن الأول**. أسس عبد الرحمن الدولة الأموية في الأندلس عام ١٣٨ هـ، بعد أن فر من الشام إلى الأندلس في رحلة طويلة استمرت ست سنوات، بعد سقوط الدولة الأموية في دمشق عام ١٣٢ هـ، وتتبع العباسيون لأمراء بني أمية وتقتيلهم.

- دخل الأندلس وهي تتأجج بالنزاعات القبلية والتمردات على الولاة، فقضى عبد الرحمن في فترة حكمه التي استمرت ٣٣ عامًا، في إخضاع الثورات المتكررة على حكمه في شتى أرجاء الأندلس، تاركًا لخلفائه إمارة استمرت لنحو ثلاثة قرون.

نسبه ونشأته

نسبه هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب. كنيته: أبو المطرف وقيل أبا زيد وقيل أبا سليمان، وكانت أمه سبية بربرية من قبيلة نفزة اسمها راح أو رداح.

ولد سنة ١١٣ هـ/ ٧٣١ م في خلافة جده هشام بن عبد الملك، في بلاد الشام عند قرية تعرف بدير حنا، وقيل ولد بالعليا من أعمال تدمر.[٦] توفي أبوه شاباً عام ١١٨ هـ في خلافة أبيه هشام بن عبد الملك، فنشأ عبد الرحمن في بيت الخلافة الأموي بدمشق حيث كفله وإخوته جده هشام. وكان جده يؤثره على بقية إخوته ويتعهده بالصلات والعطايا في كل شهر حتى وفاته.

ويروى أن عم أبيه الفارس مسلمة بن عبد الملك والذى كان له باعًا طويلاً في علم الحدثان قد وصلته نبوءة تقول بأن عدواً سيأتى من الشرق ويقضي على الحكم الأموي، إلا أن فتى أمويًا سوف يتمكن من إقامته من جديد في بلاد الأندلس , وعندما نظر مسلمة إلى عبد الرحمن لأول مرة في رصافة هشام بعد وفاة أبيه رأى في وجهه العلامات التي تدل على أنه الأموي المقصود.

وعندما أقام العباسيون دولتهم على أنقاض الدولة الأموية، هدفوا إلى تعقب الأمويين والقضاء عليهم خشية أن يحاولوا استرداد ملكهم، فقتلوا بعضهم مما جعل الباقين منهم يستترون. حينئذ، أظهر العباسيون الندم على ما كان منهم، وأشاعوا أنهم أمّنوا من بقي من الأمويين حتى اجتمع منهم بضع وسبعون رجلاً منهم أخ لعبد الرحمن يدعى يحيى، فأفنوهم. وحين بلغ عبد الرحمن بن معاوية ذلك، هرب من منزله بدير حنا من أعمال قنسرين، وأوصى بأن يتبع بولده سليمان وأختيه أم الأصبغ وأمة الرحمن. حتى بلغ قرية عليالفرات، اختبأ بها. وذات يوم، اشتكى فيه عبد الرحمن الرمد، فلزم ظلمة داره، وإذا بابنه سليمان وهو ابن أربع سنين يدخل عليه فزعًا باكيًا، فتوجس عبد الرحمن وإذا برايات العباسيين في القرية، ودخل عليه أخ له صغير يخبره الخبر. فعمد عبد الرحمن إلى دنانير تناولها، ثم أعلم أختيه بمتوجهه، وفر هو وأخيه. بعدئذ، وشى به عبد من عبيده، تعقبته فرسان العباسيين، فلم يجدا أمامهما مهربًا إلا عبور النهر. وإذ هما في نصف النهر، أغرتهما الشرطة أن يرجعا ولهما الأمان، فرجع أخوه خشية الغرق، وغرر به وقتله العباسيون، وكان عمر أخيه ثلاث عشرة سنة، بينما نجح عبد الرحمن بالوصول إلى الضفة الأخرى. ثم ألحقت به أخته أم الأصبغ مولاه بدر ومولاها سالمًا بمال وشيء من الجواهر، فتوجه عبد الرحمن بالموليين صوب إفريقية.

فراره إلى المغرب

استغل عبد الرحمن بن حبيب الفهري والي إفريقية سقوط الدولة الأموية ليستقل بحكم إفريقية. خشي الفهري ظهور الأمويين الفارّين من المشرق على ولايته، فتتبعهم بالقتل، فقَتَل منهم ابنين للوليد بن يزيد. لذا، ظل عبد الرحمن يتنقل من مكان إلى مكان خمس سنين، بدءًا من نزوله على أخواله بني نفزة، وهم من بربر طرابلس، ثم نزل على مكناسة وقيل مغيلة، حيث آواه أبو قرّة وانسوس المغيلي، لحمايته من متعقبيه. ثم منها إلى قوم من زناتة منازلهم قرب البحر في سبتة.

وفي عام ١٣٦ هـ، أرسل مولاه بدرًا إلى موالي بني أمية في الأندلس يطلب عضدهم والتمهيد لدخوله الأندلس. فعرض بدر رسالة عبد الرحمن على أبي عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد وأبي الحجاج يوسف بن بخت زعماء موالي بني أمية في الأندلس، فأجابوه. وعرضوا الأمر على الصميل بن حاتم وكان من زعماء المضرية، غير أن الصميل خشي علي نفوذه من مجيء عبد الرحمن، فاستقر على ألا يجيبه. كان الأندلس حينئذ يغلي بسبب النزاعات المتواصلة بين القبائل المضرية واليمانية، فوافقت دعوة عبد الرحمن رغبة اليمانية المدفوعين بالرغبة في الثأر لهزيمتهم أمام الفهرية والقيسية في موقعة شقندة، فاحتشدوا لنصرة لعبد الرحمن. ثم أرسل زعماء الموالي مركبًا تعبر به إلى الأندلس، فوصل إلى ثغر المنكب في ربيع الثاني سنة ١٣٨ هـ.

دخوله الأندلس

بعد أن دخل عبد الرحمن الأندلس أتاه أبو عثمان وعبد الله بن خالد، وسارا به إلى حصن طرش منزل أبي عثمان التي أصبحت مركزًا لتجمع أنصاره. بلغ الخبر يوسف الفهري بوصول عبد الرحمن وتجمع الناس حوله، وعدم قدره عامله على إلبيرة على تفريقهم. فنصح الصميل يوسف بوجوب التوجه فورًا لملاقاة عبد الرحمن، فجمع يوسف

جيشه. علم عبد الرحمن بمسير جيش يوسف، فتحرك بجيشه وأخضع كافة المدن في طريقه حتى إشبيلية التي استولى عليها وبايعه أهلها، فتجمع له ثلاثة آلاف مقاتل. ثم حاول مباغتة يوسف الفهري، ومهاجمة قرطبة ليستولي عليها، والتقيا في موضع يبعد عن قرطبة نحو ٤٥ ميلاً لا يفصلهما إلا النهر. حاول يوسف أن يغري عبد الرحمن لينصرف بجنده، بأن وعده بالمال وبأن يزوجه من إحدى بناته. إلا أن عبد الرحمن رفض، وأسر خالد بن يزيد أحد رسل يوسف، لإغلاظه له القول. وفي الليل، حاول عبد الرحمن أن يسبق بجنده جيش يوسف خلسة إلى قرطبة. علم بذاك يوسف فسار الجيشان بمحاذاة النهر صوب قرطبة، إلى أن انحسر الماء عند المصارة يوم الأضحى العاشر من ذي الحجة لعام ١٣٨ هـ، فعبر جيش عبد الرحمن ودارت المعركة التي انتهت بنصر عبد الرحمن. خلال المعركة أشيع بين الجنود أن عبد الرحمن يركب جوادًا سريعًا للفرار به وقت الهزيمة. فلما بلغ عبد الرحمن هذا الكلام ترك فرسه في الحال وقال: "إن فرسي قلق لا يتمكن معه الرمي!"، ثم ركب بغلاً ضعيفًا كي يقنع جنوده بأنه لن يولي ظهره للأعداء. بعد انتصاره، دخل عبد الرحمن إلى قرطبة، وأدى الصلاة في مسجدها الجامع حيث بايعه أهلها على الطاعة.

توطيد الإمارة

بعد هزيمة يوسف الفهري والصميل وفرارهما من موقعة المصارة، توجه يوسف إلى طليطلة وحشد منها ما استطاع من أنصاره بمساعدة عامله عليها هشام بن عروة الفهري، وتوجه الصميل إلى جيان وجمع فيها أنصاره ومؤيديه. ثم اجتمعت القوتان وتوجهتا إلى إلبيرة. وكانت خطتهما أن يجذبا عبد الرحمن من قرطبة إلى جيان لقتالهما، ثم يذهب عبد الرحمن بن يوسف الفهري ليحتل قصر الإمارة في قرطبة. وبالفعل عندما علم عبد الرحمن الداخل باجتماعهما توجه إليهما سنة ١٣٩ هـ، بعد أن ترك قوة صغيرة

لحماية قرطبة بقيادة أبي عثمان. لكنه ما أن ابتعد قليلاً حتى هاجم عبد الرحمن بن يوسف الفهري قرطبة واحتل قصر الإمارة، وأسر أبا عثمان وكبله بالأغلال. وعندما علم عبد الرحمن الداخل بما حل بقرطبة عاد مسرعًا إلى قرطبة، ففر ابن يوسف الفهري إلى أبيه في إلبيرة ومعه أبو عثمان. عندئذ، غادر عبد الرحمن الداخل قرطبة، وتوجه إلى الصميل ويوسف في إلبيرة وحاصرهما، فطلبا الصلح على أن يعترفا بإمارته، ولا ينازعاه فيها، وأن يؤمنهما على النفس والمال والأهل، وأن يؤمن حلفاءهما وأعوانهما ويسمح لهما بسكنى قرطبة تحت رعايته ورقابته. وقد قبل عبد الرحمن على أن يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن وأبي الأسود محمد رهينتين عنده يعتقلهما في قصر قرطبة كضمان للوفاء بعهده، وأن يفرج عبد الرحمن الداخل عن خالد بن زيد أحد قادة يوسف الفهري في مقابل أن يفرج يوسف عن أبي عثمان. وتم الصلح بين الفريقين عام ١٤٠ هـ. وقفل يوسف والصميل مع عبد الرحمن الداخل إلى قرطبة وأنفض جندهما، ونزل يوسف بشرقي قرطبة في قصر الحر الثقفي، ونزل الصميل بداره بالربض وعمل عبد الرحمن علي إكرامهما وتقدير مكانتهما.

ولم يمض عام حتى حاول أنصار يوسف السابقين حمله على الثورة على عبد الرحمن، فكاتب يوسف أهل ماردة ولقنت، فأجابوه وكتبوا إليه، فهرب إليهم سنة ١٤١ هـ. ولما علم عبد الرحمن بهربه أتبعه الخيل وقبض على ابنه واعتقل الصميل تحسبًا لأي خطر قد يشارك فيه الصميل. تقدم يوسف نحو إشبيلية وحاصرها وكان واليها عبد الملك بن عمر المرواني الذي طلب من ابنه والي مورور نجدته. ففك يوسف الحصار ليتوجه إلى عبد الرحمن الداخل. لكن عبد الملك وابنه زحفا خلف يوسف الذي رأي التخلص منهما أولاً، ودارت بينهما معركة، انهزم فيها يوسف، وتفرق من معه. وفر يوسف إلى طليطلة ليحتمي بها عند هشام بن عروة الفهري والي طليطلة، فأدركه عبد الله بن عمر الأنصاري قبل طليطلة بأربعة أميال فقتله، وبعث برأسه إلى عبد الرحمن الداخل. ثم أمر عبد الرحمن الداخل بقتل عبد الرحمن بن يوسف المعتقل لديه، كما خنق الصميل في سجنه، وقتل جميع أنصار يوسف الفهري.

الثورات

وفي أواخر عام ١٤٣ هـ، ثار القاسم بن يوسف بن عبد الرحمن الفهري وحليف أبيه رزق بن النعمان الغساني في الجزيرة الخضراء على الأمير عبد الرحمن، الذي وجه إليهما من هزمهما، وفر القاسم وقتل الغساني. ثم ثار هشام بن عروة الفهري صاحب طليطلة، فسار إليه عبد الرحمن وشدد عليه الحصار حتى اضطر إلى طلب الصلح مقابل أخذ ابنه كرهينه عند عبد الرحمن. فقبل عبد الرحمن ذلك. ثم عاد هشام إلى نقض العهد. فغزاه الداخل في العام التالي، وشدد الحصار عليه ودعاه إلى الرجوع فلم يستجيب له. فلما يئس الأمير منه أمر بضرب عنق ابن هشام، وقذف الرأس بالمنجنيق في المدينة، ثم تركه لانشغاله بثورة العلاء بن مغيث اليحصبي الذي ثار عام ١٤٦ هـ في باجة بعد أن راسل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الذي كان يطمع في استعادة الأندلس، واستطاع أن يجمع حوله الناس والجند من أنصار الدولة العباسية، فاستولى على شذونة. فأرسل له الداخل جيشًا بقيادة مولاه بدر، فسيطر على المدينة، فتحرك العلاء بجيشه إلى إشبيلية ودخلها. فخرج عبد الرحمن من قرطبة في جميع قواته إلى قرمونة وتحصن بها ومعه ثقات مواليه وخاصته، فسار إليه العلاء وحاصره العلاء بها شهرين، عندئذ خرج عبد الرحمن في ٧٠٠ من رجاله ليرد الهجوم بعد أن خارت قوى جيش العلاء، فهزمهم وقتل العلاء. أمر عبد الرحمن بحز رأس العلاء ورؤوس أشراف أصحابه، ووضعت فيها صكوك بأسمائهم وحملوا بعضهم إلى أسواق القيروان ليلاً، والبعض الآخر وفيهم رأس العلاء إلى مكة مع بعض التجار الثقات ومعه الرسالة واللواء الذي أرسله المنصور إلى العلاء- فوضعوه أمام سرادق المنصور الذي كان يحج ذلك العام. فلما رأي المنصور رأس العلاء انزعج وقال: «الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان بحرًا».

ثم بعث عبد الرحمن مولاه بدر وتمام بن علقمة عام ١٤٧ هـ في جيش كثيف إلى طليطلة، فحاصرا هشام بن عروة الفهري حصارًا شديدًا، ومنعا الطعام عن أهل طليطلة،

حتى ضج أهل المدينة من الحصار واستثقلوا الحرب، وكاتبوا تمام وبدر وسألوهما الأمان مقابل تسليم ابن عروة وبعض قادته لهما، فقبلا ذلك وحملوهم إلى قرطبة، فحلقت رؤوسهم ولحاهم وألبسوا جببًا صوفية وحملوا علي الحُمر، ودخلوا قرطبة علي هذا الحال حيث أمر عبد الرحمن بقتلهم، ليعلن بذلك نهاية تمرد ابن عروة الفهري.

وفي عام ١٤٩ هـ، ثار على الداخل سعيد اليحصبي في لبلة، وسار إليه عبد الرحمن بنفسه وأخمد ثورته.[٤١] ومن بعده في نفس العام،[٣٩] ثار أبي الصباح اليحصبي الذي نقم من عبد الرحمن أن عزله عن ولاية إشبيلية، وهو الذي كان له عونًا وجمع له اليمانية يوم المصارة. لجأ الداخل معه إلى الحيلة، فبعث إليه عبد الله بن خالد يُأمنه. فلما دخلا قرطبة، أمر عبد الرحمن بقتل أبي الصباح. منذئذ، لزم عبد الله بن خالد داره حتى مات لمرارة في نفسه من خداع عبد الرحمن له واستعماله في استدراج أبي الصباح.

وفي عام ١٥٣ هـ، ثار البربر بزعامة رجل يقال شقيا بن عبد الواحد المكناسي كان معلمًا للصبيان، ثم ادعى بأنه فاطمي، فقتل عامل الأمير على ماردة ثم استولى على قورية. فسار إليه عبد الرحمن، ففر منه الفاطمي إلى الجبال ولم يتمكن منه لسنوات، إلى أن انكشف أمره لأصحابه فقتلوه. عندئذ، جاءته رسل مولاه بدر بثورة اليمانية بقيادة عبد الغافر اليحصبي وحيوة بن ملامس الحضرمي. فسيَّر إليهم الداخل جيشًا هزمهم، وقتل حيوة، وفرّ عبد الغافر عبر البحر.

تلا ذلك محاولة ابن أخيه عبيد الله بن أبان بن معاوية وبعض معاونيه الانقلاب عليه في قرطبة وهو متنزهًا خارجها، فراسله مولاه بدر بالخبر وتمكن بدر من القبض عليهم، وأمر عبد الرحمن بضرب أعناقهم. ثم وجه الداخل عام ١٦٠ هـ قوة بقيادة تمام بن علقمة وأبي عثمان لقتال الفاطمي، واقتتلا وهزمهما الفاطمي، إلا أن رجلين من أصحابه تآمرا عليه وقتلاه بعد ذلك، لتنتهي ثورته.

في عام ١٦١ هـ، نزل عبد الرحمن بن حبيب الصقلبي بجيشه ساحل تدمير، فسارع الداخل بمهاجمة ابن حبيب، فاستغاث ابن حبيب بوالي برشلونة سليمان الأعرابي، ولكن هذا الأخير لم ينجده. وبذلك استطاع عبد الرحمن أن يهزم ابن حبيب ويحرق سفنه عند ساحل تدمير. ففر الصقلبي إلى كورة بلنسية، حيث اغتاله رجل من البربر طمعًا في عطية من الداخل.

وفي عام ١٦٤ هـ، ثار عليه الرماحس بن عبد العزيز الكناني والي الجزيرة، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه. فلما اقترب جيش عبد الرحمن، آثر الماحس الهرب، ففر بأهله عبر البحر ولجأ إليأبي جعفر المنصور. وفي عام ١٦٨ هـ، بلغ عبد الرحمن الداخل بعد ذلك ائتمار ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية وهذيل بن الصميل بن حاتم به ليخلعوه، فأمر بهم فاعتقلوا، ثم قتلهما، وسخط بسبب ذلك على أخيه الوليد بن معاوية فنفاه هو وبنيه إلى المغرب. ثم ثار عليه أبو الأسود محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الفهري عام ١٦٩ هـ في قسطلونة، فخرج إليه الداخل وقاتله وهزمه، وقتل أربعة آلاف من أصحاب أبو الأسود الذي فر يومئذ. وفي عام ١٧٠ هـ، خرج الداخل لإخماد ثورة بربر نفزة، وهي آخر غزواته.

غزو شارلمان لشرق الأندلس

ثار سليمان الأعرابي حاكم برشلونة ومعه الحسين بن يحيى الأنصاري زعيم سرقسطة على الداخل، فأرسل لهم جيشًا بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي، فهزموا جيش الداخل وأسروا ثعلبة، وأرسلوا إلى شارلمان ملك الفرنجة المعروف في المراجع العربية باسم قارلة، يدعوه للتحالف معهم. فعبر بجيشه جبال البرانس، وأغار على البشكنس في بنبلونة. ثم أنه طمع في سرقسطة، فسار إليها، فاستقبله الأعرابي، إلا أن الحسين بن يحيى وأهل المدينة أبَوّ إلا أن يقاوموه، ولم يسلموا له. حاصر شارلمان المدينة،

لكنه لم يقدر على فتحها، فرجع إلى بلده وأخذ الأعرابي معه أسيرًا لأنه ورّطه في ذلك الأمر. وفي طريق عودته، دبر ابنا سليمان وحلفائهم من البشكنس كمينًا دمروا به مؤخرة جيش شارلمان في معركة باب الشرزي، واستطاعوا تحرير الأعرابي والفرار به،إلا أن الحسين بن يحيى ما لبث أن ترصد للأعرابي وقتله بعد ذلك بفترة قصيرة.

ثم سار الداخل بجيشه إلى سرقسطة عام ١٦٥ هـ، فحاصرها وشدد عليها الحصار، فضاق أهلها من الحصار. ففاوض الحسين بن يحيى وهو يومئذ قائدهم، عبد الرحمن الداخل فك الحصار وأن يأخذ ابنه سعيد رهنًا. فقبل الداخل، إلا أن سعيد هرب بعد يوم واحد فقط. فعاد الحسين إلى الثورة، فحاصره جيش الداخل مجددًا، إلى أن ملّ أهل سرقسطة الحصار، وسلموا الحسين إلى الداخل فقتله، وقفل راجعًا إلى قرطبة.

وفاته

توفي عبد الرحمن الداخل في ٢٤ ربيع الآخر عام ١٧٢ هـ، وترك من الولد أحد عشر ولدًا منهم سليمان وهو أكبر ولده، وهشام والمنذر ويحيى وسعيد وعبد الله وكليب، ومن البنات تسع. وقد دفن في قصر قرطبة بعد أن صلى عليه ولده عبد الله. وخلفه من بعده ولده هشام الملقب بهشام الرضا بعهد من والده، رغم أن أخاه سليمان كان أسن منه.

أعماله

اتبع عبد الرحمن الداخل سنة أسلافه من الأمويين في نظام الحكم، فاتخذ حُجّابًا، ولم يتخذ وزراء. واحتفظ دومًا بمجموعة من المستشارين، أغلبهم ممن استقبلوه وناصروه في بداية عهده وقاتلوا معه. وقد اهتم بجيشه الذي كان الدعامة التي ساعدته على السيطرة على مقاليد الأمر طوال حكمه، فبلغ جيش عبد الرحمن الداخل مائة ألف جندي من المتطوعين والمرتزقة، لاسترابته من العرب بسبب نزعاتهم المستمرة للثورة. إضافة إلى

حرسه الخاص الذي بلغ أربعين ألفًا من الموالي والبربر والرقيق. كما أنشأ في أواخر عهده عددًا من قواعد بناء السفن في طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وإشبيلية.

بني عبد الرحمن قصر الرصافة في أول حكمه، وسماه الرصافة كرصافة جده هشام بن عبد الملك الذي بناه في الشام، وأحاطه بالحدائق الزاهرة التي جلب لها الغروس والزروع والنوى لم تكن من قبل في الأندلس من الشام وإفريقية. وفي عام ١٥٠ هـ، أقام سور قرطبة الكبير، الذي حصّن به قرطبة، واستمر العمل به لأعوام. وفي عام ١٧٠ هـ، أسس الأمير عبد الرحمن المسجد الجامع في قرطبة، وأنفق على بناءه ١٠٠ ألف دينار وقيل ٨٠ ألف دينار. وكان المسلمون حين افتتحوا قرطبة، قد شاطروا أهلها كنيستهم العظمى، فابتنوا فيه مسجدًا. ولما كثرت عمارة قرطبة، ضاق المسجد على مرتاديه، فابتاع الداخل الشطر الثاني من النصارى بمائة ألف دينار، فأسس عليها الجامع، وتمت أسواره في عام، وأمر ببناءه على طرازالمسجد الأموي بدمشق. وقد بلغت مساجد قرطبة في عهده ٤٩٠ مسجدًا. كما أنشأ دارًا لسك العملة، تضرب فيها النقود بحسب ما كانت تضرب في دمشق في عهد بني أمية وزنًا ونقشًا.

لم تحدث عبد الرحمن الداخل نفسه بالخلافة، حيث كان يرى بأنه لا يستحقها إلا من ملك الحرمين، ولم يقطع الخطبة للخليفة العباسي حتى عام ١٣٩ هـ، بعد عشرة أشهر من حكمه، بعد أن أشار عليه قادته بقطعها، بل ألح بعضهم على ذلك، حتى أن عبد الملك بن عمر المرواني هدده بقتل نفسه إن لم يقطعها. أما فيما يتعلق بعلاقاته الخارجية، فبعد أن فشلت حملة شارلمان على شرق الأندلس، وهزيمة جيشه في معركة باب الشرزي. دعاه عبد الرحمن الداخل إلى السلم والمصاهرة، لتوطيد العلاقة بين الدولتين، فأجابه شارلمان إلى السلم، ولم يجبه إلى المصاهرة.

في زمنه دخل الغازي بن قيس الأندلس بموطأ مالك وبقراءة نافع بن أبي نعيم.

الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله

أمير المؤمنين أبو المُطرّف عبد الرحمن الناصر لدين الله (ولد ١١ يناير ٨٩١م / ٢٧٧هـ - وتوفي ١٥ أكتوبر ٩٦١م / ٣٥٥ هـ) هو ثامن حكام الدولة الأموية في الأندلس التي أسسها عبد الرحمن الداخل في الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية في دمشق، وأول خلفاء قرطبة بعد أن أعلن الخلافة في قرطبة في مستهل ذي الحجة من عام ٣١٦ هـ، والمعروف في الروايات الغربية **بعبد الرحمن الثالث** تمييزًا له عن جديه عبد الرحمن بن معاوية (**عبد الرحمن الداخل**) وعبد الرحمن بن الحكم (**عبد الرحمن الأوسط**).

استطاع عبد الرحمن الناصر إخماد التمردات الداخلية على سلطة الدولة، فاستعاد هيبة الدولة وبسط سلطته على كافة أنحاء دولته، بعد أن كانت سلطة الدولة قد انحصرت في عهد سابقيه في قرطبة ونطاق ضيق حولها. كما حافظ على حدود الدولة الخارجية عن طريق تحقيق انتصارات عسكرية على الممالك المسيحية المجاورة في الشمال، مما أنهى أطماع تلك الممالك في التوسع جنوبًا. لم تقتصر مساعي عبد الرحمن الناصر في الحفاظ على حدود دولته على مجابهة الممالك المسيحية في الشمال، بل استطاع تأمين حدوده الجنوبية عن طريق السيطرة على الموانئ المقابلة للأندلس في بر المغرب وتقديم الدعم المادي والعسكري لبعض أمراء المغرب لصد مساعي الفاطميين للتوسع غربًا. وبفضل الاستقرار السياسي والمغانم العسكرية، انتعشت الأندلس في عهد الناصر اقتصاديًا وعسكريًا، مما جعل الأندلس وجهة للبعثات الدبلوماسية من أقطار مختلفة تسعى لخطب ود أو طلب الدعم من عبد الرحمن الناصر.

ينتسب عبد الرحمن الناصر لدين الله إلى بني أمية التي أسست الخلافة الأموية التي حكمت الأقطار الإسلامية بين عامي ٤١ هـ - ١٣٢ هـ، حين أسقطها العباسيون واستطاع أحد أجداد الناصر وهو عبد الرحمن بن معاوية أن يفر إلى الأندلس مؤسسًا دولة

جديدة مستقلة عن خلافة العباسيين في المشرق، فنسبه هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمدبن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية.

ولد عبد الرحمن في قرطبة في ٢٢ رمضان ٢٧٧ هـ (ديسمبر ٨٩٠ م)، لأبيه محمد ابن الأمير عبد الله بن محمد سابع أمراء دولة بني أمية في الأندلس، وأمه أم ولد مسيحية أوروبية تدعى مزنة أو ماريا كما تشير الروايات الأجنبية. كان أبوه أكبر أبناء الأمير عبد الله وولِيّ عهده، إلا أنه قُتل بعد ولادة ابنه عبد الرحمن بنحو عشرين يومًا بعد أن حسده أخوه المُطرّف لاختيار أبوهما لمحمد وليًا للعهد، فوشي به عند أبيه متهمًا إياه بالتواطؤ مع زعيم المتمردين على عرش الإمارة عمر بن حفصون. ارتاب الأمير عبد الله في ولده محمد، وأمر باحتجازه في القصر، ولم يمض وقتًا طويلاً حتى ثبتت براءته. وقبل أن يهم الأمير بإطلاق سراح ابنه، بادر المطرف شقيقه في سجنه، وأثخنه طعانًا حتى قُتل. وقد اختلفت الروايات في شأن مقتل أبيه، فقد ذكرت بعض الروايات أن محمدًا قد فر بالفعل إلى ابن حفصون بعد أن تمكنت سعاية أخيه عند أبيهما، فظهر غضب الأمير على محمد، إلا أن محمدًا استأمن أباه ورجع، وما لبث أن جدّ المطرف في وشايته بأخيه، فحبس الأمير ابنه محمدًا في قصره، وخرج الأمير في حملة واستخلف ابنه المطرف، فقتل المطرف أخاه في محبسه.

على أية حال، بعد مقتل محمد أبي عبد الرحمن، كفل الأمير عبد الله حفيده وأسكنه في قصره، فنشأ مقرّبًا إلى جده الذي آثره وأولاه عنايته، وعني بتربيته وتعليمه، فتعلم القرآن والسنة، كما درس الشعر والتاريخ والنحو، وعلّمه فنون الحرب والفروسية، فكان محل ثقة جده الذي أوكل إليه القيام بالعديد من المهام، بل وندبه للجلوس مكانه في بعض المناسبات والأعياد لتسلّم الجند عليه، وحين اشتد به المرض، برئ إليه بخاتمه إشارة منه باستخلافه.

البيعة

مات الأمير عبد الله في غرة ربيع الأول من عام ٣٠٠ هـ، وما أن لفظ الأمير أنفاسه الأخيرة، حتى أُخذت البيعة لحفيده عبد الرحمن بن محمد في قصر قرطبة، فبايعه في البداية أعمامه أبان والعاص وعبد الرحمن ومحمد وأحمد، ثم أعمام أبيه العاص وسليمان وسعيد وأحمد. وقد خطب في الحضور عمه أحمد بن عبد الله، فقال : «والله لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام، ولقد كنت انتظر هذا من نعمة الله علينا، أسال الله إيزاع الشكر، وتمام النعمة، وإلهام الحمد». ثم بايعت حاشية القصر والوزراء، ففقهاء قرطبة وأعيانها حتى الظهر، فصلى عبد الرحمن على جثمان جده ودفنه. بعد ذلك، جلس جمع من وزرائه لتلقي البيعة عنه في المسجد الجامع في قرطبة، ثم أُرسلت الرسل إلى عمال الأمير في سائر الكور لأخذ البيعة من الناس.

كانت بيعة عبد الرحمن حينئذ أمرًا غير معهود، فقد كانت العادة أن ينتقل الأمر من الآباء إلى الأبناء أو إلى الإخوة، وهو ما لم يحدث رغم وجود عدد من أبناء الأمير عبد الله وإخوته على قيد الحياة عند وفاة الأمير. أرجع بعض النقاد والمؤرخين سبب هذا الانتقال غير المعهود للسلطة من الجد إلى حفيده، ومباركة البيت الأموي لذلك، إلى تخوّف أمراء بني أمية من ذلك الحمل الثقيل والمغامرة غير مأمونة العواقب بتحمّل مسئولية الإمارة في ظل حالة التمزق التي سادت الأندلس، بعد اشتعال نار التمردات والانفصال في معظم جنبات دولة الأمويين في الأندلس، ولم يعد للأمير سلطة فعلية إلا على قرطبة وبعض المناطق المحيطة بها، أكثر منه تعففًا واحترامًا لمشيئة الأمير الراحل، يستند هؤلاء المؤرخون في نظريتهم تلك إلى ما كان من بعض أعمام عبد الرحمن من محاولة للانقلاب على حكمه، بعد أن استطاع عبد الرحمن الوصول بالدولة إلى بر الأمان. كما أن عبد الرحمن الذي ساكن جده الأمير في قصره، قد أظهر همة ومهارة ونجاح في أداء المهام التي أوكلها له جده، مما جعل الأمراء الأمويين يتوسمون في هذا الشاب المقدرة على تجاوز

هذه المرحلة الصعبة في تاريخ دولتهم. بينما يرى ابن عذاري، أنه إنما جلس عبد الرحمن على عرش الإمارة، إلا وفاءً لرغبة الأمير باستخلاف حفيده الذي كان محل ثقته وإيثاره.

تنظيم الإمارة داخليًا

كانت الإمارة حين تولاها عبد الرحمن بن محمد مضطربة للغاية، انطلقت فيها الثورات والتمردات في كل مكان، حتى أن ابن عذاري وصف الأندلس في تلك المرحلة بأنها «جمرة تحتدم، ونارًا تضطرم شقاقًا ونفاقًا». وكان على الأمير الشاب أن يسرع في تدبير أمور دولته، ومجابهة العصاة والمتمردين قبل أن يفقد السيطرة على الأوضاع وتذهب دولة بني أمية بالكُليّة. فبعد أن أخذت البيعة لعبد الرحمن، بدأ الأمير الشاب في ترتيب الشأن الداخلي لإمارته، فولى مولاه بدر بن أحمد الحجابة، وأقر بعض الوزراء من ذوي الخبرة كأحمد بن محمد بن أبي عبدة الذي ولّاه قيادة الجيش كما استبدل البعض الآخر.

سارع عبد الرحمن بعدئذ بإرسال حملة بقيادة القائد العباس بن عبد العزيز القرشي لقتال الثائر البربري "الفتح بن موسى بن ذي النون" وحليفه محمد بن إدريس الرباحي المشهور بأرذبلش، اللذان أعلنا التمرد في كورة جيان، فإلتقاهما في ربيع الآخر من عام ٣٠٠ هـ في منطقة قلعة رباح، وهزمهما وقتل أرذبلش والكثير من أتباعهما، وأرسل العباس رأس أرذبلش إلى قرطبة، فوصلها في ١٠ ربيع الآخر من عام ٣٠٠، وعُلق بباب السدة، فكان رأس أرذبلش أول رأس لمتمرد ترفع في عهد الأمير عبد الرحمن، وبذلك أنهى عبد الرحمن التمرد في تلك الكورة.

غزوة المنتلون

أرسل عبد الرحمن بعد ذلك حملة نحو الغرب لاسترداد إستجة من أتباع ابن حفصون، ثم خرج بنفسه في شعبان ٣٠٠ هـ بجيش توجه به نحو الجنوب الشرقي

نحو كورة إلبيرة، إلا أنه غير وجهته نحو كورة جيان وسط الأندلس فاستولى على حصن مرتُش، وأرسل قوة نجحت في استرداد مالقة. ومن مرتش توجه عبد الرحمن بجيشه نحو حصن المنتلون الذي تحصن به سعيد بن هذيل أحد زعماء المولدين وحاصره إلى أن سلم سعيد بن هذيل الحصن بعد أن أمنه عبد الرحمن على حياته في رمضان ٣٠٠ هـ. ثم بدأ عبد الرحمن في انتزاع الحصون التي احتلها المتمردون الواحد تلو الآخر فانتزع حصن شمنتان من عبد الله بن أمية بن الشالية وحصن منتيشة من إسحاق بن إبراهيم ثم سائر حصون كورة جيان من أتباع ابن حفصون من زعمائها الذين دخلوا في طاعة الأمير بعد أن عفا عنهم. بعدئذ توجه عبد الرحمن بجيشه جنوبًا نحو كورة ريُّة معقل ابن حفصون فأخضع سائر حصونها ومنها إلى مدينة وادي آش فاستردها وأخضع حصونها وسائر حصون جبل الثلج.

حاول ابن حفصون أن يخفف الضغط الذي سببته هجمات جيش الأمير على مناطق نفوذه بأن أرسل قوة لمهاجمة غرناطة، إلا أن خطته فشلت بعدما نجحت حاميتها وأهل ألبيرة في صد ذاك الهجوم. واصل جيش الأمير انتزاعه للحصون من أيدي الثائرين وإخضاعها حتى بلغ جملة ما افتتحه عبد الرحمن في غزوته تلك سبعين حصنًا من أمهات الحصون سوى توابعها من الحصون الصغيرة والأبراج والتي وصل عددها إلى ثلاثمائة، ثم عاد إلى قرطبة يوم عيد الأضحى مكللاً بالنصر بعد ثلاثة أشهر من الغزو.

إخضاع إشبيلية

بعد عودة عبد الرحمن إلى قرطبة، سرعان ما لعبت الأحداث دورها لتساعد الأمير الجديد، فجاءته أنباء وفاة إبراهيم بن حجاج زعيم إشبيلية واقتسام ولديه عبد الرحمن ومحمد الحكم، فتولى عبد الرحمن حكم إشبيلية بينما تولى محمد حكمقرمونة. ثم توفي عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج في المحرم من سنة ٣٠١ هـ، فطمع أخيه محمد في حكم

إشبيلية، إلا أن أهل إشبيلية اختاروا لهم زعيمًا آخر من بني حجاج أيضًا يدعى أحمد بن مسلمة بن حجاج. غضب محمد بن إبراهيم من اختيار أهل إشبيلية لابن مسلمة، فلجأ محمد للأمير عبد الرحمن ودخل في طاعته، فبعث له الأمير بجند حاصر بهم المدينة وضيق على أحمد بن مسلمة الذي استنجد بابن حفصون الذي سار إليه بنفسه تعضيدًا، وتقاتل الفريقان في معركة دموية رهيبة انتهت بهزيمة ابن مسلمة وحليفه ابن حفصون شر هزيمة، فانتهز الأمير تلك الفرصة وأرسل جيشًا بقيادة حاجبه بدر بن أحمد، الذي نجح في دخول إشبيلية دون إراقة دماء في جمادى الأولى في نفس العام، إلا أن عبد الرحمن لم يولّ محمد بن إبراهيم حكم المدينة وعين لها سعيد بن المنذر القرشي حاكمًا لكورة إشبيلية من قبله، لينهي عبد الرحمن بذلك تمرد إشبيلية على سلطة الإمارة.

تضييق الخناق على ابن حفصون

ما أن عاد عبد الرحمن إلى قرطبة بعد غزوة المنتلون، عاد ابن حفصون إلى مهاجمة حصون كورة ريّة والجزيرة الخضراء، فعادت تلك المناطق لسابق ثورتها على الأمير في قرطبة، مما دعى عبد الرحمن أن يخرج بنفسه مرة أخرى في شوال ٣٠١ هـ، فتوجه إلى قلعة طرش وحاصرها، وافتتحها والعديد من الحصون تباعًا، فإضطر عمر بن حفصون أن يخرج بقواته مع حلفاؤه من الممالك المسيحية في الشمال لقتال جيش الأمير فالتقى الجيشان عند قلعة طرش، ودارت معركة كبيرة انتهت بهزيمة ابن حفصون وحلفاؤه ومقتل عدد كبير من جنودهم، ففر ابن حفصون غربًا.

واصل عبد الرحمن ضغطه على خصمه ابن حفصون، فأرسل جزءً من أسطوله لاعتراض السفن المحملة بالمؤن التي أرسلها الفاطميون حلفاء ابن حفصون من المغرب لدعم ابن حفصون، فاستولت سفن الأمير عليها وحرقتها.

بعدئذ زحف عبد الرحمن إلى الجزيرة الخضراء ودخلها في ذي القعدة من عام ٣٠١ هـ، ثم سار إلى شذونة ومنها إلى قرمونة لإخضاع ثورة حبيب بن سوادة الذي ما أن وصل جيش الأمير إلى المدينة حتى طلب الأمان من الأمير، فأمنه عبد الرحمن على أن ينتقل بأهله إلى قرطبة. عاد عبد الرحمن بعدئذ إلى قرطبة في ذي الحجة ٣٠١ هـ بعد أن وجّه ضربة موجعة للثائرين.

وفي عام ٣٠٢ هـ، عمت قرطبة الأفراح مع مولد الحكم بن عبد الرحمن ولي عهد الأمير من جارية رومية تدعى مرجان، فسُر به عبد الرحمن وأجرى العطايا والهبات احتفالاً بتلك المناسبة.

وفي نهاية عام ٣٠٢ هـ، حلت مجاعة عظيمة بالأندلس استمرت للعام التالي فانتشر الوباء وعمّ الموت. أبدى عبد الرحمن حنكة في التعامل مع تلك الأزمة، فأوقف حملاته العسكرية في ذلك العام ووزّع الصدقات والمؤن على الفقراء والمعوزين، فحذا حذوه الأمراء وكبار رجال الدولة فأخرجوا الصدقات للفقراء، مما ساهم في تخفيف وطأة المجاعة على الشعب إلى حد ما، مما زاد من شعبيته بين أبناء شعبه.

ومع انتهاء البلاء، سير عبد الرحمن القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة في جيش لغزو الممالك المسيحية في الشمال، والوزير إسحق بن محمد القرشي لغزو كورتي تدمير وبلنسية فافتتح حصن أريولة ومدينة الحامة، كما وجّه الحاجب بدر بن أحمد لغزو لبلة ففتحها.

نهاية تمرد بني حفصون

وفي عام ٣٠٣ هـ، طلب ابن حفصون من الأمير الصلح، وسعى له في ذلك يحيى بن إسحاق طبيب الأمير وصديق ابن حفصون، فقبل عبد الرحمن العرض وكلّف يحيى بن إسحاق بالتفاوض مع ابن حفصون على شروط الصلح، فاتفقا على عدة شروط منها أن يقر

الأمير لابن حفصون سيطرته على ١٦٢ حصنًا على أن يدخل ابن حفصون في طاعة الأمير. وافق الأمير على هذه الشروط وسعد بها ابن حفصون، وتبادلا الهدايا، ولزم ابن حفصون هذا العهد حتى مماته في ربيع الأول من عام ٣٠٦ هـ.

مات عمر بن حفصون وله أربعة من الأبناء سليمان وجعفر وعبد الرحمن وحفص وإبنة واحدة تدعى أرخنتا. اقتسم بني عمر بن حفصون الحصون التي كانت خاضعة لأبيهم، فكانت قلعة ببشتر من نصيب جعفر، فيما إتخذ عبد الرحمن من قلعة طرش معقلاً له، أما سليمان فدانت له أبدة.

لم يمر وقت طويل حتى نقض جعفر بن عمر العهد الذي كان بين أبيه والأمير عبد الرحمن، بل وطمع فيما في يد أخيه عبد الرحمن من حصون، مما دفع عبد الرحمن بن عمر بن حفصون للجوء إلى الأمير والدخول في طاعته مسلمًا إياه قلعة طرش. ثم أمر الأمير عبد الرحمن بعدئذ بتوجيه حملة إلى أبدة فاحتلتها وأُسر سليمان بن عمر بن حفصون، وسيق للأمير ثم عفا عنه عبد الرحمن.

وفي عام ٣٠٨ هـ، قتل جعفر بن عمر بن حفصون في مؤامرة، وخلفه أخوه سليمان الذي نكث عهد الطاعة للأمير، فسار الأمير لقتاله وحاصر قلعة ببشتر، ثم فك حصارها بعد أن استعصت عليه، إلا أنه عاد وحاصرها عام ٣١١ هـ وشدد الحصار، فإضطر سليمان للفرار من القلعة إلى جبل ببشتر، واستولى الأمير على عدد من حصونه، فاستسلم له سليمان على أن يترك له عددًا من الحصون التي في يده للأمير، وهو ما قبله عبد الرحمن وتصالحا على ذلك. عاد سليمان مرة أخرى إلى تمرده عام ٣١٤ هـ، فبعث له الأمير جيشًا بقيادة وزيره عبد الحميد بن بسيل الذي نجح في هزيمة سليمان، وقُتل سليمان وبعث ابن بسيل برأسه إلى قرطبة. خلف حفص بن عمر بن حفصون أخيه سليمان إلى أن سار له الأمير في ربيع الأول من عام ٣١٥ هـ مصطحبًا معه ولي عهده الحكم، وحاصر قلعة ببشتر لعدة أشهر حتى طلب حفص الأمان من الأمير وسلم له القلعة في ذي القعدة ٣١٥ هـ، وأرسل الأمير

للقلعة واليًا من قبله لينهي بذلك تمردًا قاده بنو حفصون لنحو نصف قرن في جنوب شرق الأندلس.

وفي المحرم من عام ٣١٦ هـ، توجه الأمير ومعه ولده الحكم إلى ببشتر لتنظيم شئون المدينة التي ظلت لأعوام طويلة خارج سيطرة الإمارة، فوجدها شديدة التحصين إضافة إلى موقعها الذي زادها منعة، فأمر بادئ ذي بدء بدكّ أسوارها حتى يسهل السيطرة عليها إن تمردت مرة أخرى، ثم طهر المدينة من آثار بني حفصون وأقام الصلاة في مساجدها وهدم الكنائس والأديرة التي شيدها عمر بن حفصون بعد أن ارتدّ عن الإسلام، ثم أمر بالقبض على أرختنا بنت عمر بن حفصون التي أصرت على تنصرها، فأعدمها عبد الرحمن بحد الردة، مما جعل المسيحيون يدرجونها في سلك قديسيهم وشهدائهم. كما أمر بنبش قبر عمر بن حفصون ليتحقق من صحة كونه مات مسيحيًا، فوجد أنه مدفونًا على الطقوس المسيحية، فأمر بصلبه في قرطبة إلى جانب أشلاء ولده سليمان وظلت أشلاؤهما معلقة حتى عام ٣٣١ هـ، ليكونا عبرة لكل من تسوّل له نفسه التمرد على سلطان الأمير.

السيطرة على غرب الأندلس

بعد أن نجح عبد الرحمن في استعادة السيطرة على جنوب وشرق الأندلس، كان هناك تحديًا آخر أمامه في غرب الأندلس، ألا وهم بني مروان الجليقيين وهم من المولدين الثائرين على سلطة قرطبة، الذين سيطروا على بطليوس وما جاورها لنحو أربعين عامًا. ففي ربيع الأول من عام ٣١٧ هـ، قرر الأمير أن يتوجه بجيشه غربًا إلى بطليوس لينتزعها من يد عبد الرحمن بن عبد الله الجليقي صاحب بطليوس، واصطحب معه في تلك الغزوة ولداه الحكم والمنذر، فحاصر بطليوس وضربها بالمجانيق، حينئذ طلب الجليقي الأمان فوافقه الأمير على ذلك على أن ينتقل بأهله إلى قرطبة، وجعل الأمير للمدينة واليًا من قبله، لينتهي بذلك تمرد آخر لأسرة أخرى مردت على التمرد على سلطة الأمير.

توجه الأمير بعد ذلك إلى باجة لإخضاع تمرد عبد الرحمن بن سعيد بن مالك الذي رفض الدخول في طاعة الأمير، فحاصر عبد الرحمن المدينة حتى استسلم له ابن مالك يسأله الأمان، فأمنه عبد الرحمن وأمره بالانتقال وأسرته إلى قرطبة، وجعل لباجة واليًا من قبله. ومن باجة انتقل عبد الرحمن إلى أكشونبة، فبادر خلف بن بكر بالتسليم والخضوع لأمير، فأقره عبد الرحمن على المدينة على أن يلتزم بحسن السيرة ويؤدي حصته من الجباية.

الثغر الأعلى

في عام ٣١٤ هـ، أرسل عبد الرحمن وزيره عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى معقل بني ذي النون، فهاجم شنت برية وفتحها وقتل محمد بن محمد بن ذي النون، وأخضع مدينة سُرية. وفي عام ٣١٧ هـ، نجح دريّ بن عبد الرحمن صاحب شرطة الأمير أن ينهي تمرد عامر بن أبي جوشن في شاطبة، واسترد المدينة منه.

بقي أمام عبد الرحمن عقبة أخرى في الثغر الأعلى، وهي طليطلة المدينة التي ما استكانت لوال أو أمير أندلسي إلا مرغمة، ولا خضعت إلا صاغرة. وما من أمير أموي إلا وإضطر لحمل السلاح لإخضاعها، إعادة أهلها إلى الطاعة. لجأ عبد الرحمن في البداية إلى مسايرة أهلها، فأرسل إليهم في عام ٣١٨ هـ وفدًا من وجوه أهل قرطبة وفقهائها ليدعوهم للدخول في طاعة الأمير، فرفض أهل طليطلة ذلك، فقد كان في ذلك انتكاسة لهم، فقد كانوا لا يؤدون جباية ولا يلتزمون طاعة. فأرسل إليهم جيشًا بقيادة سعيد بن المنذر القرشي، فحاصرها عامين ونجح في صد جيش أتي من الممالك المسيحية في الشمال لنجدة المدينة بعد أن راسلهم أهلها، قبل أن يخرج لها عبد الرحمن في جيش آخر عام ٣٢٠ هـ، مما إضطر قائد المدينة ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث أن يطلب الأمان لأهل المدينة ودخولها في طاعة الأمير، وهو ما قبله عبد الرحمن.

قتال الممالك المسيحية

مع تفكك عُرى الأمارة بسبب الثورات والتمردات على عرش الإمارة في عهد الأمير عبد الله بن محمد، أصبحت الفرصة سانحة أمام الممالك المسيحية في الشمال (مملكتي ليونونافارا) للتوسع جنوبًا وضم أجزاء من الأراضي التي خضعت لسلطان المسلمين في الأندلس، فقامت تلك الممالك بضم جميع الأراضي الواقعة شمال نهر دويرة وشيدت فيها العديد من القلاع لتكون قاعدة لغزو أراضي المسلمين جنوب النهر، وبذلك أصبحت مدن الإسلام الشمالية مثل أسترقة وسمورة وشقوبية وشلمنقة وميراندة معرضة على الدوام لهجمات الممالك المسيحية.

وفي ظل حالة الضعف تلك التي سادت المناطق الشمالية في غياب سلطة الإمارة، آثر الأمير الجديد عبد الرحمن بن محمد إرجاء محاربة الممالك المسيحية حتى تقوى شوكته عن طريق إعادة السيطرة على البلاد وإنهاء التمردات والثورات على عرش الإمارة. إلا أن الأمر لم يطل، ففي عام ٣٠٤ هـ، بعث الأمير الجديد قائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة في جيش إلى الشمال لمهاجمة أراضي مملكة ليون، وعاد منها محملاً بالسبي والغنائم. وفي العام التالي، رد أردونيو الثاني ملك ليون الهجوم عندما هاجم المناطق الشمالية من أراضي المسلمين، فاستجار أهل تلك المنطقة بالأمير، فأنجدهم بجيش كبير يقوده قائده ابن أبي عبدة معظم جنوده من البربر والمرتزقة الذين لا يمكن الوثوق في ولائهم، فحشد لهم أردونيو جيشًا كبيرًا واجههم به عند قلعة شنت إشتيبن في ١٤ ربيع الآخر من عام ٣٠٥ هـ، ومع هجوم جيش أردونيو على جيش المسلمين اختلت صفوف المسلمين بعدما فر جند المرتزقة الذين كانوا يشكلون جزءً كبيرًا من الجيش مما تسبب في إلحاق هزيمة كبيرة بجيش المسلمين في تلك المعركة قُتل فيها القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة نفسه.

ومع نهاية نفس العام، تحالف أردونيو الثاني ملك ليون مع سانشو الأول ملك نافارا للهجوم على أراضي المسلمين، فبعث الأمير جيشًا قويًا بقيادة حاجبه بدر بن أحمد

ليجاهد بهم جيش التحالف المسيحي، وأنضم لجيش الحاجب العديد من المتطوعين الراغبين في الجهاد. خرج جيش الحاجب بدر من قرطبة في المحرم من عام ٣٠٦ هـ، والتقى في ربيع الأول بجيش المسيحيين على حدود مملكة ليون ودارت بين الفريقين معركة عظيمة انتهت بنصر كبير لجيش المسلمين.

غزو قشتالة ونافارا

وبعد عدة أشهر، عادت الممالك المسيحية وهاجمت أراضي المسلمين، فخرج عبد الرحمن بنفسه في المحرم من سنة ٣٠٨ هـ متجهًا إلى قشتالة، وعبر نهر دويرة وهاجم مدينةوخشمة وقلعة إشتيبن وقلونية ودمرها جميعًا. بعد ذلك، توجه بجيشه لنجدة مدينة تطيلة التي كانت تتعرض لهجمات الممالك المسيحية، وظلّ عبد الرحمن يكتسح المدن والقلاع حتى عبر نهر أبرة، واشتبك لجيشه مع جيش سانشو ملك نافارا، واستطاع عبد الرحمن أن يهزم جيش نافارا، فإضطر سانشو إلى الفرار إلى الجبال. عندئذ، أرسل سانشو إلى أردونيو الثاني ملك ليون يطلب منه أن يساعده على قتال المسلمين، فخرج أردونيو بجيشه لمعاضدة جيش نافارا. استغل ملكا نافارا وليون مرور جيش المسلمين في منطقة جبلية وهاجما مؤخرة الجيش الإسلامي وألحقا به بعض الخسائر، حينئذ أمر عبد الرحمن جيشه بالإسراع في الخروج من تلك المنطقة إلى المنطقة السهلية المجاورة. طمع الملكان المسيحيان في تحقيق نصر كبير على جيش المسلمين، بعدما وجدوا أن جيش المسلمين قد عسكر في منطقة سهلية مفتوحة يسهل مهاجمتها، وفي ٦ ربيع الأول من عام ٣٠٨ هـ، هاجمت جيوش المسيحيون معسكر جيش المسلمين، إلا أن الرياح لم تأت بما تشتهي السفن، فهزم جيوش المسيحيين هزيمة ساحقة في معركة عرفت بمعركة خونكيرا.

وبعد عامين، هاجم أردونيو مدينة ناجرة واستولى عليها، كما هاجم سانشو مدينة بقيرة واستولى أيضًا عليها، بل وقتل زعماء المدينة. غضب عبد الرحمن حين علم

بذلك، وسيّر جيشًا بقيادة وزيره عبد الحميد بن بسيل إلى مملكة نافارا حيث اشتبك مع جيش سانشو وألحق به عدة هزائم، واستولى ابن بسيل على تطيلة. ثم خرج عبد الرحمن بنفسه في المحرم من عام ٣١٢ هـ إلى نافارا في جيش عرمرم، فوقع الرعب في قلوب أعدائه، وأخلوا معظم الحصون التي في طريقه، فأمر عبد الرحمن بهدم وحرق تلك الحصون، ثم زحف بجيشه على بنبلونة عاصمة نافارا، فحاول جيش نافارا محاولة يائسة أن يوقف ذلك الجيش القوي، لكن دون جدوى، فدخل عبد الرحمن المدينة ودمرها ثأرًا لأهل بقيرة. عاد سانشو محاولاً مواجهة عبد الرحمن وجيشه، إلا أن عبد الرحمن هزمه في موقعتين أُخريين، ثم عاد بجيشه إلى قرطبة محملاً بالغنائم مكللاً بالنصر.

وفاة أردونيو الثاني

وفي عام ٣١٣ هـ، مات أردونيو الثاني ملك ليون، وتنازع بنيه الملك ودارت بينهم حربًا أهلية استمرت لنحو سبعة أعوام انتهت باعتلاء ولده راميرو الثاني العرش. استغل عبد الرحمن تلك الأحداث المضطربة عند أعدائه، فتفرغ لتوطيد ملكه والقضاء على التمردات والثورات الداخلية في الأندلس.

بعد أن استقر الملك لراميرو، سار على نهج أبيه، فاستغل تجدد الثورة في طليطلة على حكومة قرطبة، وراسل قادة ذاك التمرد عارضًا عليهم التحالف والدعم. ما أن علم عبد الرحمن بذلك حتى أرسل جيشًا إلى طليطلة في ربيع الآخر من عام ٣١٨ هـ. ضرب ذلك الجيش حصارًا على المدينة لنحو عامين، قبل أن يسير عبد الرحمن نفسه بجيش آخر إلى طليطلة في عام ٣٢٠ هـ. عندئذ، حاول راميرو نجدة حلفاؤه في طليطلة، إلا أن عبد الرحمن سارع بجيشه وواجهه قبل أن يصل إلى طليطلة وحال بينه وبين الوصول إلى المدينة، فلم يجد زعماء التمرد في طليطلة بَدًّا سوى التسليم لجيوش عبد الرحمن في رجب من عام ٣٢٠ هـ، فأمر عبد الرحمن بهدم حصون المدينة حتى يصعب على زعمائها التمرد عليه مجددًا.

وفي عام ٣٢١ هـ، هاجم راميرو مدينة وخشمة واحتلها، فسار عبد الرحمن إليها بنفسه في جمادى الأول من عام ٣٢٢ هـ، إلا أنه عرج في طريقه على سرقسطة لإخضاع ثورة محمد بن هاشم التجيبي، فترك قوة لحصار المدينة، ثم سار بجيشه إلى نافارا، فقابلته رسل طوطة أرملة سانشو الأول ملك نافارا والوصية على عرش ولدها غرسية يطلبون الصلح والسلام، ثم سارت طوطة بنفسها مقدمة لعبد الرحمن فروض الطاعة، متعهدةً له بالكف عن التعدي على أراضي المسلمين أو إلحاق الأذى بهم، أو التحالف ضد المسلمين مع أعدائهم أو دعم المتمردين على سلطة قرطبة، إضافة إلى إخلاء سبيل بعض أسرى المسلمين، على أن يقر عبد الرحمن ولدها غرسية في ملكه، وتم تسجيل معاهدة بذلك.

بعد ذلك سار عبد الرحمن إلى قشتالة، واجتاحها مدمرًا ما في طريقه من القلاع والحصون دون أي مقاومة تذكر من راميرو ملك ليون أو أي من قواته، حيث اكتفى بالتحصن في أحد حصونه المنيعة تاركًا جيش عبد الرحمن حرًا في أرضه يحصد منها ما شاء من الغنائم، فزحف عبد الرحمن بجيشه على برغش عاصمة قشتالة ودمرها، ثم عاد إلى قرطبة بعد أن فرض سطوته على المملكتين المسيحيتين، وهو محملاً بالغنائم.

وفي عام ٣٢٣ هـ وبعد هذا النصر الساحق لعبد الرحمن، جاءت رسل راميرو إلى عبد الرحمن تلتمس الصلح، فأرسل عبد الرحمن معهم وزيره يحيى بن يحيى بن إسحاق لعقد شروط الصلح، ووقع عبد الرحمن على المعاهدة في ربيع الآخر من عام ٣٢٣ هـ.

تمرد سرقسطة

لم تدم المعاهدة بين عبد الرحمن وراميرو طويلاً، حيث خرق راميرو المعاهدة بعد أن تحالف مع محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة الذي ثار على عبد الرحمن ومع طوطة وصية عرش نافارا ضد عبد الرحمن.

في مواجهة هذا التمرد والتحالف الثلاثي، أرسل عبد الرحمن جيشًا بقيادة الوزير عبد الحميد بن بسيل إلى سرقسطة، ثم ألحقه بجيش آخر بقيادة سعيد بن المنذر القرشي لدعم جيش ابن بسيل، ثم لحقهم هو بنفسه بجيش ثالث في رجب من عام ٣٢٥ هـ. وبينما كان عبد الرحمن في طريقه إلى سرقسطة، بلغه أن المسيحيين وجهوا جيشًا إلى طليطلة، فتوجه بجيشه إلى طليطلة، فآثرت جيوش المسيحيين الانسحاب شمالاً دون مواجهة جيش عبد الرحمن. ترك عبد الرحمن قوة لحماية طليطلة، وتوجه ببقية الجيش إلى سرقسطة. وفي طريقه، انتزع عبد الرحمن قلعة أيوب من يد المطرّف بن المنذر التجيبي المدعوم بقوة من المسيحيين، فهزمهم عبد الرحمن وقتل المطرف. رأى عبد الرحمن أن يزحف بجيشه على قشتالة قبل أن يواصل زحفه نحو سرقسطة، لضرب أعدائه في ديارهم تأديبًا لهم على دعمهم لابن هاشم التجيبي، فاكتسح عبد الرحمن عددًا من حصون قشتالة ودمّرها، ثم سار إلى نافارا ودمّر عددًا آخر من حصونها، وأرسل فرقًا من جيشه لغزو مناطق عدة من الأراضي المسيحية عادت كلها محملة بالغنائم. هرعت طوطة عندئذ إلى عبد الرحمن معتذرة على خرقها للصلح الذي كان بينهما، فقبل عبد الرحمن اعتذارها.

سار عبد الرحمن بعد ذلك إلى سرقسطة، ودعم الحصار الذي ضربه جيشي ابن بسيل وسعيد بن المنذر على المدينة، ثم أمر ابن بسيل أن يتوجه بجيشه إلى بطليوس، وأن يضم إليه قوات واليها أحمد بن محمد بن إلياس، ثم يهاجم أراضي مملكة ليون. شدّد عبد الرحمن حصاره لسرقسطة، حتى لم يصبح أمام محمد بن هاشم التجيبي سوى التسليم وطلب الصلح مع الأمير، وذلك في يوم عيد الأضحى من عام ٣٢٥ هـ. اشترط عبد الرحمن على ابن هاشم التجيبي أن يقدم عددًا من أولاده وإخوته وكبار رجاله رهائن ليضمن بذلك نفاذ الصلح بينهما، وهو ما قبله التجيبي، فدخل عبد الرحمن المدينة في المحرم من عام ٣٢٦ هـ، ثم أمر بهدم أسوارها، وترك بها حامية كبيرة من رجاله.[٦٢] ثم سار عبد الرحمن بعدئذ إلى شنت إشتيبن، وقاتل جيشًا من المسيحيين في معركة عظيمة، هُزم فيها

المسيحيين، ثم عاد عبد الرحمن إلى قرطبة في ربيع الأول من عام ٣٢٦ هـ، بعد أن حقق انتصارات واسعة وقد جمع قدرًا كبيرًا من الغنائم.

معركة الخندق

وفي عام ٣٢٧ هـ، غزا عبد الرحمن مملكة ليون بجيش ضخم عبر به نهر دويرة، فاجتمعت له جيوش الممالك المسيحية بعد تحالف راميرو مع طوطة وصية عرش نافارا التي نكثت وعدها مجددًا مع عبد الرحمن. والتقى الجيشان في شوال من عام ٣٢٧ هـ في معركة عرفها المسلمون **بمعركة الخندق**، فيما عرفت في كتب التاريخ بمعركة سيامنقة. هُزم المسلمين في تلك المعركة هزيمة كبيرة رغم تفوقهم العددي على عدوهم، بعد أن توافرت عناصر الهزيمة في صفوف جيش المسلمين، حيث أخطأ عبد الرحمن بتقريبه لقادته من الصقالبة وتوليتهم المناصب الهامة في الجيش على حساب العرب والبربر، مما جعل الغيرة تدب في صفوف العرب والبربر، وجعلهم يبدون فتورًا في القتال في المعركة، فانتهز المسيحيون تلك الفرصة وهاجموا جيش المسلمين، وهزموهم هزيمة ساحقة فر على إثرها عبد الرحمن جريحًا في عدد من فرسانه إلى قرطبة. كان لتلك المعركة أثرًا كبيرًا في نفوس المسلمين، حتى أن عبد الرحمن لم يخرج في أي غزوة منذ ذلك الحين. وبعد أن عاد عبد الرحمن إلى قرطبة، أمر بإصلاح الجيش، وعاقب عددًا من الفرسان لتخاذلهم في القتال في المعركة.

ورغم النصر الذي حققته الممالك المسيحية في تلك المعركة، إلا أنهم لم يكونوا قادرين على تطوير الموقف لصالحهم، فقد دارت حرب أهلية جديدة في مملكة ليون، مما دعى راميرو إلى طلب معاهدة جديدة مع عبد الرحمن، وهو ما قبله عبد الرحمن. كما طلب سونير كونت برشلونة الصلح مع عبد الرحمن، فصالحه عبد الرحمن على ألا يتحالف مع أحد من أعداء عبد الرحمن أو المتمردين على سلطانه، وأن يفض تحالفه مع غرسية ملك نافارا.

عاد راميرو مرة أخرى لنقض عهده مع عبد الرحمن، واستمرت الغزوات المتبادلة من كل طرف على أراضي الطرف الآخر لأعوام، عمل خلالها عبد الرحمن على تحصين مدينة سالم أقرب مدن المسلمين إلى حدود ليون وشحنها بالرجال، لتكون قاعدة وحائط صد لهجمات مملكة ليون على أراضي المسلمين، إلى أن مات راميرو عام ٣٣٩ هـ، حيث تنازع أبنائه الملك، فاستغل عبد الرحمن تلك الفرصة، وأرسل جيشًا عظيمًا بقيادة أحمد بن يعلى إلى مملكة ليون، وهزم جيوشها، مما دعاهم لطلب الصلح مع عبد الرحمن، وهو الصلح الذي دام حتى نهاية عهد عبد الرحمن.

خطر الدولة الفاطمية وإعلان الخلافة الأموية في الأندلس

خريطة الدولة الأموية في الأندلس والدويلات التي عاصرتها بعد أن دبَّ الضعف في الخلافة العباسية ببغداد.

كان هناك خطر خارجي آخر يهدد عبد الرحمن بن محمد في ملكه، ألا وهو الفاطميين شيعيي المذهب الذين نجحوا في تأسيس مملكة في إفريقية واستطاعت التوسع شرقًا فضموا مصر وغربًا حتى المغرب، بل وأعلنوا قيام خلافة جديدة أساسها المذهب الشيعي تحت اسم **الخلافة الفاطمية**، وهو ما مثل تهديدًا عسكريًا ودينيًا للأمويين بصفة خاصة والأندلس بصفة عامة. وأمام التهديد العسكري الذي شكله الفاطميون في مواجهة عبد الرحمن، ودعوتهم لنشر المذهب الشيعي في ظل ضعف الخلافة العباسية في بغداد وانحصار سلطتها في دائرة صغيرة حول بغداد، رأي عبد الرحمن أنه الأحق والأجدر بسمة الخلافة من دولة وأخرى طارئة. وفي يوم الجمعة الثاني من ذي الحجة من عام ٣١٦ هـ، أمر عبد الرحمن بأن يُخاطب بصفة رسمية بلقب أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله القائم بأمر الله ثم اقتصر على الناصر لدين الله، ودعى له القاضي أحمد بن أحمد بن بقي بن مخلد على منبر المسجد الجامع في قرطبة بذلك، وأمر عبد الرحمن ولاته

وقادته في المدن والكور بأن يعلنون ذلك المرسوم، ومنذ ذاك الحين ضربت ألقاب الخلافة على النقود.

استغل بعض ثائري الأندلس على حكم الأمويين في الأندلس وعلى رأسهم عمر بن حفصون تلك الفرصة، ودارت بينهم الفاطميين مراسلات أفضت إلى بعض التحالفات بين الطرفين. لجأ عبد الرحمن إلى حلين لإيقاف هذا الخطر الذي قد يدهم الأندلس في أي لحظة. كان أولهما أن احتل مرفأ مليلة عام ٣١٤ هـ، وأقام عليه حاكمًا من قبله ينتمي لقبائل مكناسة. كما أمر عبد الرحمن أميري البحر أحمد بن محمد بن إلياس وسعيد بن يونس بن سعديل بالتوجه بأسطول من مائة وعشرين سفينة تحمل سبعة الآف مقاتل لاحتلال مدينة سبتة، فاستولى هذا الأسطول على المدينة في جمادى الآخر من عام ٣١٩ هـ، ليقطع السبيل أمام أطراف المؤامرة التي حاكها الثائرين مع حلفائهم الفاطميين، وليمنع أي خطر قد يهدد الأندلس من الجنوب. ثم بعث عبد الرحمن رسله إلى صاحب طنجة يطالبه بتسليم المدينة، غير أنه رفض ذلك، فأمر عبد الرحمن أسطولة بمحاصرة طنجة، حتى أعلن صاحب طنجة استسلامه وسلم المدينة للأسطول الأندلسي.

ومن ناحية أخرى، عقد عبد الرحمن مجموعة من التحالفات مع بعض أمراء البربر المعادين للفاطميين فدخلوا في طاعة عبد الرحمن الناصر، فبسط بذلك عبد الرحمن سلطانه على أجزاء كبيرة من المغرب، خاصة مع دخول موسى بن أبي العافية أمير مكناسة في طاعة عبد الرحمن. وفي ظل تلك العلاقات الطيبة بين عبد الرحمن وأمراء البربر، أمدّ عبد الرحمن أمير مكناسة بالمال والسلاح، فاستطاع ابن أبي العافية أن يهزم جيشًا أرسله عبيد الله الفاطمي لغزو المغرب عام ٣٢١ هـ. بعد تلك الهزيمة، جهز الفاطميون جيشًا أكبر ووجهوه لقتال ابن أبي العافية عام ٣٢٣ هـ، فلم يستطع ابن أبي العافية الصمود أمام ذلك الجيش وفرّ إلى الصحراء، واستنجد بعبد الرحمن الناصر الذي

أمدّه بأسطول من أربعين سفينة محملة بالرجال والعتاد فنزل سبتة، فاستطاع موسى بن أبي العافية أن يرد جيش الفاطميين مرة أخرى من حيث أتى.

ظل عبد الرحمن وحلفاؤه في المغرب في حالة حرب مع الفاطميين وحلفاؤهم الأدارسة إلى أن طلب الأدارسة الصلح مع عبد الرحمن والدخول في طاعته عام ٣٣٢ هـ، بعدما تبين لهم أن الغلبة ستكون تحت لواء عبد الرحمن. ومنذئذ، دُعي للخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله على منابر المساجد في المغرب، وهو بمثابة اعتراف بكونه الخليفة الشرعي الذي يدينون إليه بالولاء.

ورغم انضواء الأدارسة تحت لواء عبد الرحمن، إلا أن الفاطميين ظلوا على عدائهم لعبد الرحمن وحلفاؤه. ففي عام ٣٤٤ هـ، هاجمت بعض سفن الفاطميين شواطئ ألمرية، وعاثت فيها فسادًا، فأمر عبد الرحمن أمير البحر غالب بالتحرك في أسطول إلى شواطئ إفريقية ومهاجمتها ردًا على هجوم الفاطميين. وفي عام ٣٤٧ هـ، وجّه عبد الرحمن أسطولاً آخر بقيادة أحمد بن يعلى لمهاجمة شواطئ إفريقية، فردّ الفاطميون هذا التهديد بجيش ضخم بقيادة جوهر الصقلي تسانده قبائل صنهاجة البربرية، زحف به جوهر إلى المغرب، واكتسح به شمال المغرب إلى المحيط. أثار هذا الهجوم الكاسح قلق عبد الرحمن، فأمر أساطيله بأن تكون على أهبة الاستعداد لصد أي محاولة للعبور إلى الأندلس، كما أمر أحد أساطيله بالتحرك إلى سبتة، ليكون كخط دفاع أول في حالة أي هجوم، وقد لبث ذاك الأسطول في سبتة إلى أن عاد الفاطميون أدراجهم.

تنظيم الدولة

العمارة

غدت قرطبة في عهد الناصر واحدة من أعظم مدن العالم، بل ونافست بغداد بهائها وعظمتها وفخامتها، واتسعت حتى بلغ عدد سكانها في عهد عبد الرحمن الناصر نحو نصف

مليون نسمة، وشرطتها ٤.٣٠٠ شرطي وبها ٣.٨٣٧ مسجد ومائة وثلاثة عشر ألف دار، ونحو ثلاثمائة حمام عام، وأرباضها ثمانية وعشرين ربضًا حول المدينة، ولها سبعة أبواب، كما كثرت بها القصور والمتنزهات الفخمة، فبلغت شهرة قرطبة حينئذ الآفاق. وقد اهتم عبد الرحمن الناصر بالعمارة والبناء أيما اهتمام حتى أنه خصص ثلث الخراج كل عام لهذا الشأن.

ومن جملة أعماله في هذا الشأن، بنائه لقصر منيف إلى جوار القصر الزاهر في قرطبة – الذي كان مقامًا للملك – سمّاه "دار الروضة" جلب له الماء في مجاري تنبع من رؤوس الجبال، وقد جلب له في بنائه الآف العمال والفنانين من شتى البقاع. كما أنشأ الناصر عددًا من المتنزهات العظيمة في ظاهر قرطبة، جلب لها أيضًا الماء من الجبال.

تأسيس مدينة الزهراء

يعد تأسيس مدينة الزهراء أعظم أعمال عبد الرحمن الناصر في مجال العمارة والبناء. بنيت الزهراء شمالي غرب قرطبة بنحو خمسة أميال، لتكون قاعدة ملكية جديدة بعدما ضجت قرطبة بساكنيها وازدحموا بها. وعن سبب تسميتها، ساق لنا المقري قصة في كتابه "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" عن سبب ذلك، فقد قال إن سبب تسمية المدينة باسمها أن عبد الرحمن الناصر ورث عن جارية له مالاً كثيرًا، فأمر أن يستخدم هذا المال في افتداء أسرى المسلمين، فلم يجدوا من يفتدوه بهذا المال. حينئذ، أشارت عليه جارية له تسمى "الزهراء"، بأن يبتني تلك المدينة وأن يسميها باسمها لتكون سكنًا خاصًا لها.

شيدت الزهراء في سفح جبل يسمى "جبل العروس"، وقد بدأ البناء بها في غرة المحرم من عام ٣٢٥ هـ، واستمر البناء بها ما بقي من عهد الناصر ومعظم عهد ابنه الحكم المستنصر، أي ما يقرب من أربعين عامًا، وقد عهد عبد الرحمن الناصر لابنه الحكم بأمر الإشراف على بناء تلك المدينة، التي خطّ تصميمها المهندس مسلمة بن عبد الله.

جلب الناصر لبناء الزهراء المهندسين والعمال والفنانين من شتى المدن، وبالأخص من بغداد والقسطنطينية، وقد استخدم البنائين فيها أنواعًا عدة من الرخام الأبيض والأخضر والوردي الذي جيء به من كورتي ألمرية وريُّة ومن إفريقية والشام والقسطنطينية، كما استخدم فيها أربعة الآف وثلاثمائة وأربع وعشرين سارية مختلفة الأحجام من الرخام. وقد بلغ عدد العمالة اليومية في بناء تلك المدينة عشرة الآف عامل كل يوم، إضافة إلى ألف وخمسمائة دابة لنقل مواد البناء، يستخدمون ستة الآف قطعة من الصخر المنحوت في البناء. وقد خصص عبد الرحمن الناصر ثلاثمائة ألف دينار كل عام لعمارة الزهراء، عدا ما أنفقه ابنه الحكم بعد ذلك.

شيد عبد الرحمن الناصر في مدينة الزهراء قصرًا عظيمًا كان آية في الفخامة والجلال سمّاه "قصر الخلافة"، أحاطه بالرياض الغناء والجنان الساحرة، وجعل جدرانه من الرخام المزدان بالذهب، وفي كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب، وقد زينه بالتماثيل والصور البديعة، كما جعل في وسطه صهريجًا عظيمًا ملأه بالزئبق. خصص الناصر الجناح الشرقي من القصر لإقامته، وزوده بأنفس التحف والعجائب، من بينها حوضًا منقوشًا بالذهب أهداه إليه قيصر القسطنطينية، إضافة إلى حوض آخر مُزيّن بإثني عشر تمثال من الذهب المرصع بالجواهر يخرج الماء من فيها إلى الحوض أهداه إليه وزيره أحمد بن حزم.

وفي الزهراء أيضًا، شيد الناصر مسجدًا جامعًا في ثمان وأربعين يومًا فقط. استخدم الناصر لإتمام بناء هذا المسجد ألفًا من المهندسين والعمال والفنانين في اليوم الواحد، وجعل للمسجدقبابًا وأعمدة فاخرة. كان طول المسجد ٩٧ ذراعًا وعرضه ٥٩ ذراعًا وأرضيته من الرخام الخمريّ وفي وسطه فوّارة يجري فيها الماء، وقد حمل إليه منبرًا بديع الصنع والزخارف آية في الجمال. كما بنى الناصر في الزهراء دارًا عظيمة لصناعة الأسلحة وأخرى لصناعة الزخارف والحلي. وقد انتقل عبد الرحمن الناصر للإقامة في الزهراء عام ٣٢٩ هـ، بعد أن تم بناء القصر والمسجد الجامع.

بلغت مساحة الزهراء تسعمائة وتسعون ألف ذراع، حتى أنه من فرط اتساعها قدّر المؤرخون عدد مصاريع أبوابها بنحو خمسة عشر ألف مصراع ملبّسة بالحديد والنحاس. بعد انتقال الخليفة إلى المدينة، إتخذ الأمراء وكبار القادة ورجال الدولة منازلاً لهم بالمدينة، فاتسعت الزهراء حتى اتصل عمرانها بقرطبة.

ورغم عظمة المدينة وأبهتها وما أنفقه عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في عمرانها، إلا أنها لم تدم طويلاً كقاعدة للحكم في الدولة الأموية في الأندلس، حيث انتقلت قاعدة الحكم عام ٣٦٨ هـ في عهد الخليفة هشام المؤيد بالله بن الحكم المستنصر إلى مدينة الزاهرة التي أسسها الحاجب المنصور بن أبي عامر رجل الدولة القوي الذي كانت بيده مقاليد الحكم في عهد هشام المؤيد بالله، بل تدمرت الزهراء تمامًا خلال الحرب الأهلية التي دارت بين أمراء البيت الأموي في الأندلس طمعًا في عرش الخلافة في بداية القرن الخامس الهجري، ولم يبق من الزهراء سوى أطلال، ظلت باقية إلى القرن السابع الهجري.

عمارة المسجد الجامع في قرطبة

كأسلافه، اهتم عبد الرحمن الناصر بعمارة المسجد الجامع في قرطبة، فجدّد واجهة المسجد، وإلى اليوم لا تزال اللوحة التي تنوه بهذا العمل تزين أحد أبواب المسجد، الذي حوّله الإسبانبعد سقوط قرطبة إلى كاتدرائية عظيمة، وقد كُتب على تلك اللوحة بخط كوفي : «بسم الله الرحمن الرحيم. أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاؤه ببنيان هذا الوجه وإحكام إتقانه تعظيمًا لشعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر وجزيل الذخر مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر، فتم ذلك بعون الله في شهر ذي الحجة سنة ست

وأربعين وثلث مائة على يد مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر، عمل سعيد بن أيوب».

وفي عام ٣٤٠ هـ، هدم عبد الرحمن الناصر منارة الجامع القديمة، وشيد مكانها منارة عظيمة مربعة الجوانب لها أربعة عشر شباكًا ذات عقود تحتوي على سلمين أحدهما للصعود والآخر للهبوط، في كل منها ١٠٧ درجة، وطولهما ٨٠ ذراعًا حتى موضع ارتقاء المؤذن، وفي قمتها ثلاث تفاحات كبيرة اثنان منهما من الذهب والثالثة من الفضة، إذا وقع ضوء الشمس عليها تخطف الأبصار. وفي عام ٣٤٦ هـ، زاد الناصر في عمارة المسجد الجامع زيادات كبيرة.

الجيش والأسطول

في ظل حالة التردي التي وصل إليها حال الدولة الأموية في الأندلس قبل تولي عبد الرحمن الناصر عرش الإمارة، كان لزامًا على عبد الرحمن أن يهتم غاية الاهتمام بأمر الجيش وإصلاحه وإمداده بالأسلحة والذخائر وتدريب الجنود، فالجيش هو الأداة التي كانت ستمكنه من استعادة السيطرة على شئون البلاد الداخلية والخارجية. كما اهتم عبد الرحمن بأمر الأسطول، وأضاف إليه سفنًا جديدة، حتى بلغ حجم الأسطول في ألمرية قاعدة الأساطيل الأندلسية مائتي سفينةمتعددة الأنواع والأحجام، إضافة إلى تلك السفن التي تمركزت في المغرب بعد ضم سبتة وطنجة. بل وخصص عبد الرحمن ثلث خراج الأندلس للإنفاق على الجيش والأسطول ودعمهما.

وفي إطار دعم وإصلاح عبد الرحمن للجيش، أراد عبد الرحمن أن يحدّ من سلطة العرب والبربر داخل الجيش، لما وجده منهم من نزعة للخروج على طاعة الأمير، ولجوئهم للتمرد على سلطته متى وجدوا الفرصة سانحة لذلك. فعَمِدَ عبد الرحمن إلى الاعتماد على عنصر آخر من عناصر المجتمع الأندلسي لا عصبية لهم وضيعي المنبت،

وهم عنصر الصقالبة، الذين لجأ إلى الاستكثار منهم في صفوف الجيش، وتولية بعضهم للمناصب الهامة في الجيش، حتى أن أحدهم وهو نجدة الصقلبي كان قد أصبح قائدًا أعلى للجيش في فترة من فترات حكم عبد الرحمن الناصر. واستبعد عبد الرحمن رؤساء القبائل والزعماء من مناصبهم بالتدريج، ليجمع عبد الرحمن بذلك مقاليد الحكم كلها بيده. لم يتوقف الأمر عند ذلك، بل وتخلص عبد الرحمن من كل من سولت له نفسه منازعة عبد الرحمن في ملكه، حتى أقرب الناس إلى عبد الرحمن نفسه. فقد بلغه أن ابنه عبد الله يأتمر به مع بعض فتيان القصر وبعض رجال الدولة، فأمر عبد الرحمن بالقبض على كل من شارك في تلك المؤامرة، وأعدمهم كلهم. وفي حادثة أخرى، أعدم عبد الرحمن بعض أبناء عمومته حين بلغه أنهم يأتمرون به.

لم يقتصر اعتماد عبد الرحمن على عنصر الصقالبة في الجيش فقط، بل وقلّدهم عددًا من المناصب الكبرى في القصر وإدارة الدولة، فبرز منهم أفلح صاحب الخيل، ودرّي صاحب الشرطة، وياسر وتمام صاحبي النظر على الخاص. ومع ارتفاع شأن تلك الطبقة في عهد عبد الرحمن الناصر، نمت ثروات الصقالبة، فأصبحوا يمتلكون الضياع والأموال، وقد قدّر بعض المؤرخين عددهم في القصر والحاشية بثلاثة عشر ألف وسبعمائة وخمسين، وفي مدينة الزهراء وحدها ثلاثة الآف وسبعمائة وخمسين فتى وستة الآف وسبعمائة وخمسين جارية.

كان لهذه السياسة التي انتهجها عبد الرحمن بتقريب الموالي والصقالبة على حساب العرب والبربر في الجيش أثرها السيء على معنويات العرب والبربر. كان ذاك الفتور الذي أصاب قادة العرب والبربر في الجيش أحد أسباب الهزيمة العسكرية في معركة الخندق عام ٣٢٧ هـ، بعد أن جاشت النفوس بالأحقاد تجاه الموالي والصقالبة الذين تولوا كبرى المناصب في الجيش.

الاقتصاد

بعد أن استطاع عبد الرحمن الناصر أن يصل بالبلاد إلى حالة من الاستقرار والأمن بعد السيطرة على التمردات الداخلية، وبعد نجاح حملاته التي كان يرسلها لقتال الممالك المسيحية في الشمال، والتي كانت تعود محملة بالغنائم والأموال، انتعش الاقتصاد الأندلسي، وتحسنت أحوال البلاد الزراعية والصناعية، حتى بلغت جباية الأندلس من الكور والقرى في عهد عبد الرحمن الناصر خمسة ملايين وأربعمائة وثمانين ألف دينار، ومن ضريبة الأسواق سبعمائة وخمس وستين ألف دينار، بالإضافة إلى ما كان يدخل خزائن الدولة من أخماس الأغنام.

وقد إتخذ عبد الرحمن الناصر سياسة مالية في التعامل مع تلك الأموال، بأن خصص ثلثًا أموال الجباية لنفقات الجيش والأسطول وثلثًا للبناء والتعمير والثلث الأخير فقد كان يدخره لنوائب الدهر.

وفي ١٧ رمضان ٣١٦ هـ، أمر عبد الرحمن ببناء دار السكة لضرب الدراهم والدنانير في قرطبة، وولى الوزير أحمد بن محمد بن حدير أمر إدارة دار السكة.

العلاقات الخارجية

بعد أن دبّ الوهن في أوصال الخلافة العباسية في بغداد، أصبحت الأندلس مركز العالم الإسلامي وإحدى القوى العظمى في العالم في تلك الفترة التي تزامنت مع تولي عبد الرحمن الناصر عرش الأندلس، فأصبحت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس وجهة السفارات القادمة من دول أوروبا تخطب ود حكام الأندلس.

ففي عام ٣٣٨ هـ، استقبلت قرطبة رسل قسطنطين السابع قيصر القسطنطينية الملقب ببورفيروجنتوس المحملين بالهدايا النفيسة من القيصر إلى خليفة المسلمين في الأندلس، وقد استقبلهم عبد الرحمن الناصر في قصر قرطبة في أبهته يحيط به

أبنائه وأقاربه وكبار رجال دولته. انبهر رسل القيصر بما شاهدوه من مظاهر العظمة والأبهة في قصر قرطبة، وعند مغادرتهم عائدين إلى القسطنطينية، بعث عبد الرحمن الناصر بهشام بن هذيل معهم سفيرًا إلى قيصر القسطنطينية محملاً بالهدايا العظيمة لتوثيق عرى المودة بين الدولتين.

يرجح بعض المؤرخين المعاصرين كعبد المجيد نعنعي ومحمد عبد الله عنان أن الهدف من تلك السفارة المتبادلة بين البلدين، لمناقشة تكوين تحالف مشترك لمواجهة الخطر الجديد الذي أصبح يهدد أساطيل البلدين في البحر المتوسط في وجود سفن الدولة الفاطمية الناشئة في جنوب المتوسط، والتي كانت تهدد قواعد الأندلس البحرية غرب المتوسط، إضافة إلى الشواطئ الجنوبية للإمبراطورية البيزنطية.

تبادل عبد الرحمن الناصر السفارات أيضًا مع بطرس الأول إمبراطور بلغاريا ولويس الرابع ملك فرنسا اللذان سعيا لكسب ود عبد الرحمن وصداقته. كما استقبل عبد الرحمن رسل البابا يوحنا الثاني عشر بابا الفاتيكان الذي سعى أيضًا إلى تدشين علاقات طيبة مع زعيم المسلمين في أوروبا.

إلا أن سفارة الحبر يوحنا الجورزيني سفير الإمبراطور أوتو الأول إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وملك الألمان عام ٣٤٤ هـ، كانت أهم وأخطر السفارات التي وفدت على قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر. وفد يوحنا الجورزيني على قرطبة محملاً بالهدايا النفيسة، فأمر عبد الرحمن باستقباله بحفاوة، وإحسان وفادته. إلا أن عبد الرحمن رفض أن يستقبل يوحنا، بعدما علم بأنه جاء برسالة تهدف إلى عقد ما يشبه المناظرة الدينية بين الإسلام والمسيحية. ومع إلحاح يوحنا طلبًا لمقابلة عبد الرحمن، أرسل عبد الرحمن إلى يوحنا من يخبره بأنه رهن الاعتقال في قرطبة، ردًا من عبد الرحمن على احتجاز أوتو لأسقف كان قد أرسله عبد الرحمن إلى أوتو، فاحتجزه أوتو ثلاثة أعوام، بل وأن عبد الرحمن سيحتجزه أضعاف تلك المدة لأنه أرفع

شأنًا من ملك المسيحيين. ثم رأى عبد الرحمن أن يرسل رسولاً آخر إلى أوتو ليستوثق من صدق نوايا أوتو، فأرسل الأسقف ربيع أحد أبرز المسيحيين في بلاطه إلى بلاط الإمبراطور أوتو، على أن يظل يوحنا الجورزيني محتجزًا إلى أن يعود الأسقف ربيع. وبعد عامين، عاد الأسقف ربيع، بعد أن أكرم أوتو وفادته، فقبل عندئذ عبد الرحمن مقابلة يوحنا الجورزيني والإطلاع على فحوى رسالته. كانت رسالة أوتو إلى عبد الرحمن تهدف في الأساس إلى طلب مساعدة عبد الرحمن لمنع هجمات المستعمرات الإسلامية في جنوب أوروبا على الأراضي المسيحية، إلا أن عبد الرحمن ردّ طلب أوتو بلطف مبررًا ذلك بأنه ليس له سلطة على أولئك المستعمرين.

وفاته

قضى عبد الرحمن الناصر العامين الأخيرين من حياته في صراع مع المرض، وفي الثاني من رمضان من عام ٣٥٠ هـ، توفي عبد الرحمن بعد أن أمضى خمسين عامًا في حكم الأندلس، استطاع خلالها بحزمه وصرامته وحنكته وبعد نظره أن يعيد توحيد البلاد تحت سلطة فعلية للأمير، وأصبحت الأندلس في عصره دولة مهابة الجانب يخطب ملوك أوروبا القاصي منهم والداني ود عبد الرحمن وصداقته، وتخشى الممالك المسيحية المجاورة لدولته بأسه وبطشه، فاستعاد بذلك للإسلام عزته في تلك البلاد النائية.

مات عبد الرحمن الناصر وقد أنجب من الولد أحد عشر وهم الحكم وعبد العزيز والأصبغ وعبيد الله وعبد الجبار وعبد الملك وسليمان وعبد الله ومروان والمنذر والمغيرة، وقد خلفه من بعده ولد الحكم الملقب بالخليفة المستنصر بالله.

ترك عبد الرحمن الناصر تأريخًا وجد بعد وفاته بخط يده كتب فيها: ««أيام السرور التي صفت لي دون تكدير في مدة سلطاني، يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا» فعدت تلك الأيام فوجدت أربعة عشر يومًا. »

شخصيته

استطاع عبد الرحمن أيضًا أن يجمع بين شخصية القائد العسكري المحنك والسياسي الداهية ورجل الدولة والإدارة اللبيب، وهي الصفات التي لـم يسبق أن اجتمعت في حاكم للأندلس منذ عهد جده الأمير عبد الرحمن الداخل.

وقد وصفه ابن الأثير بأنه : «رجل أبيض أشهل حسن الوجه عظيم الجسم قصير الساقين. »، وأضاف ابن حزم أنه كان أشقرَ هو وكل بنيه ورغم شخصيته الجادة الحازمة، إلا أنه كان أديبًا يهوى نظم الشعر، ويقرب الشعراءوالأدباء، شغوفًا باقتناء نفائس الكتب.

كما قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: «كان لا يمل من الغزو، فيه سؤدد وحزم وإقدام، وسجايا حميدة. أصابهم قحط، فجاء رسول قاضيه منذر البلوطي يحركه للخروج، فلبس ثوبا خشنًا، وبكى واستغفر، وتذلل لربه، وقال: ناصيتي بيدك، لا تعذب الرعية بي، لن يفوتك مني شيء. فبلغ القاضي، فتهلل وجهه، وقال: إذا خشع جبار الأرض، يرحم جبار السماء، فاستسقوا ورحموا. وكان - رحمه الله - ينطوي على دين، وحسن خلق ومزاح. »

كان عبد الرحمن يُجل رجال الدين ويتقبل نقدهم، فقد وجّه له القاضي المنذر بن سعيد البلوطي نقدًا لاذعًا مبطّنًا تأذى منه عبد الرحمن من على المنبر في خطبة الجمعة لإسرافه في الإنفاق على بناء مدينة الزهراء، فأسر عبد الرحمن لابنه قائلاً : «والله لقد تعمدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي وتفزيعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي وكاد بعصاه يقرعني». ورغم ذلك لم يلجأ عبد الرحمن لعقاب القاضي أو مسه بأي صورة من الصور، وإنما أقلع عن الصلاة خلف المنذر بعدئذ. كما كان حازمًا في مواجهة الحركات الدينية كحركة ابن مسرة الجبلي الذي كان ينشر آراء المعتزلة واستطاع جذب مريدين واستمرت حركته حتى عام ٣٤٠ هـ رغم وفاة

ابن مسرة نفسه عام ٣١٩ هـ، ولم تنتهِ إلا بأمر من عبد الرحمن الناصر بملاحقة الحركة ومنعها.

انتقد البعض نهج عبد الرحمن في الحكم، ونظريته الخاصة في الاستئثار بمقاليد الحكم كلها في يده، وهو ما بدا جليًا في محادثته مع يوحنا الجورزيني سفير الأمبراطور أوتو الأول إليه، عندما أبدى امتعاضه من نظام الحكم الإقطاعي الذي كان سائدًا في ألمانيا حينئذ، قائلاً : «إن ملككم أمير حكيم ماهر، ولكن في سياسته شيئًا لا استسيغه، وهو أنه بدلاً من أن يقبض بيديه على جميع السلطات، ينزل عن بعضها لأتباعه، ويترك لهم بعض ولاياته، معتقدًا أنه يكسب بذلك، وهذا خطأ فادح، فإن مداراة العظماء لا يمكن إلا أن تزيد في كبريائهم، وتذكي رغبتهم في الثورة.» كما انتقده البعض لقسوته في معاملة بعض عبيده الذين استخدمهم في ناعورة قصره بدلاً من الأقداس الغارفة للماء. إضافه لقتله ابنه عبد الله وعمه العاصي بعد أن اتهمهما بتدبير مؤامرة ضده. كذلك سخطه على عمته شقيقة عمه المطرف الذي قتل أباه وطردها.

- وقد كانت شخصية عبد الرحمن مثار إعجاب العديد من المؤرخين الغربين، فقد وصفه المستشرق دوزي قائلاً: «إن ذلك الرجل الحكيم النابه الذي استأثر بمقاليد الحكم، وأسس وحدة الأمة ووحدة السلطة معًا، وشاد بواسطة معاهداته نوعًا من التوازن السياسي، والذي اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالاً من غير المسلمين، لأجدر بأن يعتبر قرينًا لملوك العصر الحديث، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى.

خلافة المنصور بن أبي عامر (الحاجب المنصور)

أبو عامر محمد بن أبي عامر (٣٢٧ - ٣٩٢ هـ / ٩٣٨ - ١٠٠٢ م)، المشهور بلقب **الحاجب المنصور** حاجب الخلافة والحاكم الفعلي للخلافة الأموية في الأندلس في عهد الخليفة هشام المؤيد بالله. بدأ محمد بن أبي عامر حياته السياسية وتدرَّج في المناصب

منذ عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله، وكان على علاقة وطيدة بزوجة الخليفة صبح البشكنجية أم الخليفة هشام المؤيد بالله، والتي كانت وصية على عرش ولدها بعد وفاة زوجها الحكم. عاونت صبح الحاجب المنصور على إقصاء جميع منافسيه، وهو وما أحسن استغلاله لأبعد مدى، بل وذهب إلى أبعد من ذلك بأن حجر على الخليفة الصبي، وقيّد سلطته هو وأمه. وبتمكُّن الحاجب المنصور من مقاليد الحكم التفت إلى توسع الدولة شمالاً، فحرّك بحملاته العسكرية حدود الممالك المسيحية في الشمال إلى ما وراء نهر دويرة، فبلغت الدولة الأموية في الأندلس أوج قوتها في عهده.

قام المنصور بتأسيس دولة داخل دولة وعُرفت تلك الدولة باسم الدولة العامرية، وتمثّلت بفترة حجابته للخليفة المؤيد بالله هو وأبناءه عبد الملك المظفّر وعبد الرحمن شنجول، وقام بإرساء قواعد الحكم لأبناءه، إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً حيث انتهت سيطرتهم على حكم الأندلس بعد أقل من عقد من الزمن على وفاته، بعد أن ساد الأندلس فترة من الاضطرابات التي نتجت عن التصارع على الخلافة.

ولد أبو عامر محمد بن أبي حفص عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري. عام ٣٢٧ هـ في الجزيرة الخضراء في بيت من أعيان تلك المدينة. كان أبوه عبد الله من طلاب العلم المعروفين، وقد مات في رحلة عودته من الحج ودفن في طرابلس. أمه هي بُريهة بنت يحيى بن زكرياء التميمي من أهل بيت من أشراف قرطبة يسمون ببني برطال. جده لأمه يحيى بن إسحاق وزير وطبيب الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله. وجده عبد الملك المعافري كان من الداخلين للأندلس مع طارق بن زياد.

قدم محمد بن أبي عامر إلى قرطبة شابًا لطلب العلم والأدب والحديث، فدرس الأدب على يدي أبي علي البغدادي وأبي بكر بن القوطية، والحديث على يدي أبي بكر بن معاوية القرشي راوي النسائي. ثم بدأ حياته بأن افتتح دكانًا أمام قصر الخليفة يكتب فيه

الرسائل والعرائض لأصحاب المصالح، فلفت نظر من في القصر بأسلوب كتابته وبجزالة عباراته.

تدرجه في المناصب

التحق ابن أبي عامر بخدمة الخليفة الحكم المستنصر بالله عندما رشحه الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ليكون وكيلاً لعبد الرحمن أول أولاد الخليفة، وهو ما عينه عليه الخليفة بموافقة من أم عبد الرحمن صبح البشكنجية، فعُيّن لذلك في ٩ ربيع الأول ٣٥٦ هـ، ثم ولاّه دار السكة في ١٣ شوال ٣٥٦ هـ، ثم ولي خطة المواريث في ٧ محرم ٣٥٨ هـ، فقاضيًا على أشبيلية ولبلة وأعمالهما في ١٢ ذي الحجة ٣٥٨ هـ. وبعد وفاة عبد الرحمن صغيرًا، بقي في خدمة أم الخليفة إلى أن أنجبت ولدها الثاني هشام، فأصبح وكيلاً لهشام في ٤ رمضان ٣٥٩ هـ. وفي جمادى الآخرة ٣٦١ هـ، جعله الخليفة الحكم على الشرطة الوسطى، ثم أنفذه إلى المغرب في شوال ٣٦٢ هـ، بأموال كثيرة إلى المغرب لاستمالة زعماء البربر إلى جانب الخلافة، ثم أرسل مرسومه بتوليته قاضيًا لقضاة عدوة المغرب.[٩] ثم أسند إليه النظر على الحشم وهو في مرض موته.

في فترة خدمته لصبح البشكنجية، لجأ ابن أبي عامر إلى استمالتها بحُسن خدمتها وإتحافها بالهدايا، والتي كان أشهرها نموذجًا مبهرًا لقصر من الفضة أنفق عليه قدرًا كبيرًا من المال، وأهداه إليها في الفترة التي ولي فيها دار السكة. أثار ذلك عددًا من رجال الدولة الذين رأوا في صعوده في المناصب ما يقلقهم، فسعوا لدى الخليفة يتهمون ابن أبي عامر بالإنفاق من مال السكة، فأمر الخليفة بالتحقق من ذلك، وكان ابن أبي عامر قد أنفق منه بالفعل، فلجأ إلى صديقه الوزير ابن حُدير ليقرضه ما نقص من أموال السكة، فأقرضه ابن حدير من المال ما أتم ابن أبي عامر به ما لديه من عجز.

وفاة الحكم وانفراده بالسلطة

بعد وفاة الخليفة الحكم، كاد لدى صقالبة قصر الخلافة خطة تهدف إلى تنحية وليّ العهد الصبي هشام، وتولية عمه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بدلاً منه. وفي سبيلهم لتنفيذ ذلك، استدعى زعماؤهم الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وأنبؤوه بخبر وفاة الخليفة، ومخططهما بتولية المغيرة. تظاهر المصحفي بموافقتهم، وعمل من جانب آخر على إفشال ذاك المخطط خشية أن يزيد نفوذ الصقالبة في القصر. انصرف المصحفي من القصر، وقرر مع عدد من كبار رجال الدولة وزعماء البربر من بني برزال، ضرورة التحرك السريع لإفشال هذا المخطط، وكان القرار يقتضي قتل المغيرة بن عبد الرحمن نفسه لقطع السبيل أمام مخطط الصقالبة. تولى محمد بن أبي عامر في جماعة من الرجال بتنفيذ ذلك القرار، لينتهي الأمر بقتل مرشح الصقالبة، وتنصيب ولي العهد هشام خلفًا لأبيه.

بعد أن فشل مخطط الصقالبة، دبت الوحشة بين الحاجب المصحفي والصقالبة، الذين بدأوا في كيد المؤامرات ضده، فلجأ جعفر إلى تقسيمهم، فكان نصيب ابن أبي عامر منهم خمسمائة فتى، ولكي يستميلهم، أغدق ابن أبي عامر عليهم وأجزل لهم العطاء، فأحبوه واستقوى هو بهم، ثم ما لبث أن انضم إليه بنو برزال وهم من زعماء البربر وصاروا تحت قيادته، فاشتدّت بهم قوته.

لم تمض أشهر على خلافة المؤيد بالله، حتى هاجمت الممالك المسيحية أراضي المسلمين في الشمال، فأشار ابن أبي عامر على المصحفي بتجهيز جيش لمنازلتهم، وعرض جعفر على أكابر الدولة قيادته فرفضوا، فوجدها ابن أبي عامر فرصة مناسبة ليضم إليه قيادة الجيش، فجهزه المصحفي بمائة ألف دينار لتلك المهمة. وفي ٣ رجب ٣٦٦ هـ، خرج ابن أبي عامر في جيشه مهاجمًا أراضي جليقية، فحاصر حصن الحامة، ثم عاد إلى

قرطبة بعد ٥٣ يومًا محملاً بالسبي والغنائم، مما عزز من مكانته داخل الدولة ليعزز أمام الشعب قدراته العسكرية إضافة إلى ما عرفوه من قدراته الإدارية.

بعد عودته إلى قرطبة، بدأ محمد بن أبي عامر في التخطيط لإزاحة الحاجب جعفر المصحفي من طريقه إلى قمة السلطة، فاستغل سوء العلاقات بين جعفر المصحفي وغالب الناصريصاحب مدينة سالم بسبب اتهام جعفر لغالب بالتقصير في الدفاع عن الحدود الشمالية أمام حملة الممالك المسيحية في الشمال على حدود الدولة بعد وفاة الخليفة، كما استغل حسن علاقته بصبح أم الخليفة التي كانت تساعده على إنفاذ ما بدا له من مراسيم باسم الخليفة، وشاعت شائعات بأن حبًّا عظيمًا نشأ بين صبح ومحمد بن أبي عامر، حتى ذهب البعض إلى زواج ابن أبي عامر من أم الخليفة في السر.

وفي يوم الفطر عام ٣٦٦ هـ، خرج محمد بن أبي عامر في جيشه والتقى جيش غالب في مجريط، ثم افتتحا معًا حصن مولة وغنما فيها الكثير، إلا أن غالبًا تنازل عن مغانمه لابن أبي عامر بل وبعث للخليفة ينبئه بحسن تدبير ابن أبي عامر في تلك الحملة، مما أعلى من أسهم ابن أبي عامر لدى القصر والعامة على حد سواء. ثم أقنع محمد بن أبي عامر حليفته صبح أم الخليفة، باستصدار مرسوم خلافي من ابنها بعزل محمد بن جعفر المصحفي كحاكم لقرطبة، وتولية محمد بن أبي عامر حاكمًا على قرطبة بالإضافة إلى منصبه كقائد لجيش المدينة. لجأ جعفر لوسيلة يوقف بها هذا التحالف بين غريميه غالب وابن أبي عامر، بأن طلب يد أسماء بنت غالب للزواج من ابنه محمد بن جعفر، وهو ما أسرع ابن أبي عامر لإفشاله بأن طلب أسماء لنفسه، وهو ما وافق هوى غالب فأنكحها ابن أبي عامر. وفي صفر ٣٦٧ هـ، خرج ابن أبي عامر في غزوة جديدة فاجتمع بصهره غالب في طليطلة، وهاجما شلمنقة وعادا سويًا من تلك الحملة إلى قرطبة بالغنائم حيث تم زفاف أسماء إلى ابن أبي عامر من قصر الخلافة، وأصدر الخليفة أمره برفع القائد غالب لرتبة الحجابة بالمشاركة مع الحاجب جعفر المصحفي، وهو ما عدّه جعفر انتقاصًا من سلطته. وفي ١٣

شعبان ٣٦٧ هـ، كانت نكبة الخليفة جعفر المصحفي بأن أصدر مرسومه بإقالة الحاجب جعفر المصحفي، وسجنه هو وأبنائه وأقاربه ومصادرة أموالهم. شدد ابن أبي عامر في التنكيل بجعفر المصحفي ونكايته، حتى أنه كان يحمله معه مكبلاً في غزواته، ثم زجه في السجن، فظلّ في محبسه في الزهراء لأعوام إلى أن مات مسمومًا وقيل مخنوقًا في محبسه عام ٣٧٢ هـ، وأسلم إلى أهله وهو في أقبح صورة.

بعد أن تخلّص ابن أبي عامر من جعفر المصحفي، جعل ابن أبي عامر همّه التخلّص من صهره غالب لينفرد وحده بالسلطة. أدرك غالب ما يضمره صهره، فداهنه ودعاه وهو عائد من إحدى حملاته على قشتالة إلى وليمة في أنتيسة إحدى مدن الثغر الأدنى، ودبّر له مكيده كادت تودي بحياة ابن أبي عامر، إلا أنه نجا بعد أن أصيب إصابة خفيفة. غادر ابن أبي عامر إلى قرطبة وهو ينوي التجهيز لقتال غالب، الذي استعان بقوات راميرو الثالث ملك ليون، ثم اقتتلت قوات غالب ومحمد بن أبي عامر في معركة شنت بجنت التي كادت أن تنتهي بانتصار قوات غالب، لولا سقوطه صريعًا من على جواده في ٤ محرم ٣٧١ هـ/ ٩ أغسطس ٩٨١ م، وحُملت رأسه لابن أبي عامر. بقي أمام ابن أبي عامر خطوة أخرى، وهي عزل الخليفة الشرعي نفسه، فأشاع بين الناس أن الخليفة فوّضه إدارة البلاد لتفرغه للعبادة، ثم أحاط قصر الخليفة بسور وخندق، ووضع عليه الحرّاس ومنع الخليفة من الظهور. أدركت صبح التهديد المحدق بعرش ابنها، غير أنه بعد أن تمكن محمد بن أبي عامر من كل السلطات، لم يعد في قدرة صبح مواجهته مباشرة، فأشاعت بين العامة أن المنصور يسجن الخليفة ويحكم رغمًا عنه ويغتصب سلطته. ثم راسلت زيري بن عطية حاكم المغرب لنصرة ولدها، وأرسلت أموالا إليه ليجهز جيشه ويعبر إلى الأندلس. علم المنصور بذلك المخطط، فلجأ أولاً إلى رفع يدها عن أموال خزائن قصر الخليفة التي كانت تقوم بتهريبها بواسطة فتيانها، فأرسل ابن أبي عامر ابنه عبد الملكبقوة وجمع من العلماء والوزراء إلى قصر الخلافة بقرطبة، وخاطب الخليفة هشام في أمر

الأموال التي تهربها والدته، وطلب أن تنقل كل الأموال من قصر الزهراء إلى قصر الزاهرة، فلم يمتنع. وبعد أن جفت الأموال من بين يدي صبح، يئست من قدرتها على استرجاع سلطة ابنها، فاعتزلت الحياة السياسية حتى وفاتها حوالي عام ٣٩٠ هـ.

وفي عام ٣٧١ هـ، تسمّى محمد بن أبي عامر بلقب "المنصور"، ودُعي له على المنابر. وفي عام ٣٧٩ هـ، تعاون عبد الرحمن بن المطرف التجيبي صاحب سرقسطة مع عبد الله بن الحاجب المنصور على الانقلاب على المنصور على أن يُقسّما الملك بينهما فتكون الثغور لعبد الرحمن والبقية لعبد الله، إلا أن المنصور علم بما يدبرانه، فدبّر مكيدة لعبد الرحمن قُتل على إثرها في ١٢ ربيع الأول ٣٧٩ هـ، وحبس ابنه الذي استطاع أن يفر من محبسه، ولجأ إلى غارسيا فرنانديث كونت قشتالة، فغزاه المنصور وطالبه بابنه فرفض غارسيا، فهزمه واجتاح المنصور ألبة، واستولى على وخشمة، فاضطر غارسيا لمفاوضة المنصور وقبول شرطه بتسليم ابنه عبد الله، ثم دسّ المنصور على ابنه لقتله وذلك ١٤ جمادى الآخرة ٣٨٠ هـ، ثم بعث المنصور برأس ابنه وكتاب الفتح إلى الخليفة، فازدادت رهبة الناس من المنصور بقتله ابنه. وفي عام ٣٨١ هـ، قدّم المنصور ابنه عبد الملك للولاية، ونزل له عن لقب الحجابة، كما استوزر ابنه عبد الرحمن. اتجه المنصور كذلك، للاستكثار من جند البربر في جيشه، وخاصة من زناتة الذين عبروا إلى الأندلس، واتخذ منهم جندًا كثيفًا.

حملاته

المغرب

في عام ٣٧٥ هـ، جهّز المنصور جيشًا كثيفًا لقتال الحسن بن كنون الذي تمرد على الأمويين في المغرب وتجمّع حوله أناس كثيرون، فلم يجد الحسن أمامه سوى الاستسلام أمام ذلك الجيش، فقرر قائد الجيش حمله إلى قرطبة، إلا أن المنصور أمر بقتله وهو في

الطريق، وبإخراج الأدارسة من المغرب. ثم تمرّد بعد ذلك زيري بن عطية المغراوي على الأمويين في المغرب في عام ٣٨٧ هـ، فأرسل له المنصور جيشًا بقيادة الفتى واضح العامري، فقامت بينهما معارك كبيرة، انهزم فيها الجيش الأندلسي، فأرسل المنصور ابنه عبد الملك بجيش آخر، وانتقل المنصور بنفسه إلى الجزيرة الخضراء لإدارة الحرب وإمداد قادته في المغرب بالقوات، وقد استطاع جيش عبد الملك أن ينتصر على جيش زيري رغم أن الأخير كان قد اقترب من النصر لولا خيانة تعرض لها زيري بتدبير من المنصور، حيث طعنه ابن عمه الخير بن مقاتل برمح في ظهره أثناء المعركة، فتسببت إصابة زيري في إرباك جيشه وهزيمته وفراره في بعض جنده. وبعد أن شفي من جراحه، أظهر زيري الندم، وتوسّع شرقًا في أراضي قبائل صنهاجة الموالية للفاطميين باسم الخليفة هشام المؤيد بالله، وهو ما قبله منه المنصور، فعفا عنه وأقره على ما بيده حتى توفي زيري، فأبقى المنصور ما له لولده المعز بن زيري

الممالك المسيحية

تعدّدت حملات محمد بن أبي عامر، فلم يكتف كسابقيه بالحملات الصيفية فقط، بل وكانت له حملاته الشتوية، التي من خلالها استعاد مدن لُكّ وشلمنقة وشقوبية وآبلة وسمورة التي فقدها المسلمون في بداية عهد الدولة الأموية في الأندلس عندما استغلفرويلا الأول ملك أستورياس انشغال عبد الرحمن الداخل بإخضاع الثورات الداخلية في الأندلس في عهده، وضمّ فرويلا تلك المدن. تعدّدت وجهات تلك الحملات، وقد ذكر لنا المؤرخون منها غزواته على حصن الحامة في رجب ٣٦٦ هـ، وحصنمولة في شوال ٣٦٦ هـ، وشلمنقة في صفر ٣٦٧ هـ وفي ربيع الأول ٣٧٣ هـ، وريف مملكة نافارا وكونتية برشلونة في شوال ٣٦٧ هـ، والمُنية في ربيع الآخر ٣٧٠ هـ، وقلعة أيوب وأنتيسة في ذي القعدة ٣٧٠ هـ، وسمورة في رمضان ٣٧٣ هـ،وطرنكوشة في ربيع الآخر ٣٧١ هـ.

وفي ذي الحجة ٣٧١ هـ، واجه المنصور تحالف جيوش راميرو الثالث ملك ليون وغارسيا فرنانديث كونت قشتالة وسانشو الثاني ملك نافارا، في معركة حصن روطة وهزمهم هزيمة قاسية، أتبعها باحتلال حصن شنت منكش. وقد نتج عن تلك الهزيمة وما سبقها من هزائم متوالية أن خلع الليونيون ملكهم راميرو الثالث، وجعلوا محله ابن عمه برمودو الثاني الذي لجأ إلى التحالف مع المنصور على أن يدفع للمنصور جزية سنوية، ويمده المنصور بجيش يقيم في عاصمته ليون يقاتل به خصومه. ثم كانت للمنصور حملات أخرى على شنت منكش في محرم ٣٧٣ هـ، وشقرمنية في جمادى الأولى ٣٧٣ هـ. في ذي الحجة ٣٧٤ هـ، غزا المنصور برشلونة وهزم بورل الثاني كونت برشلونة، ودخل المدينة عنوة في ١٥ صفر ٣٧٥ هـ، بعد أن حاصر المدينة بجيش عظيم من البر وبأسطوله من البحر لم يستطع بورل الثاني مقاومته، فاضطر إلى الهرب وترك المدينة لقدرها، ولم تمض أيام حتى سقطت المدينة فدمّرها المنصور وقتل عددًا كبيرًا من الناس. وفي صفر ٣٧٦ هـ، غزا ألبة وليون وشلمنقة وحاصر سمورة ثم صالحهم، ثم غزا قندبخشة في جمادى الآخرة ٣٧٦ هـ، وقلمرية في ٣٧٨ هـ وبنبلونة عام ٣٧٩ هـ.

وعقابًا لغارسيا فرنانديث كونت قشتالة على مساعدته لولده عبد الله بن المنصور في تمرده على أبيه، حرّض المنصور سانشو بن غارسيا على التمرد على أبيه بمساعدة بعض نبلاء قشتالة. دارت بين سانشو وأبيه عدة معارك سانده فيها المنصور، انتهت تلك المعارك بمقتل غارسيا عام ٣٨٥ هـ، وخضوع سانشو للمنصور وأدائه الجزية للمسلمين. وقد استغل المنصور تلك الحرب الأهلية بين غارسيا وولده، وضم شنت إشتيبن وقلونية. إلا أن أكبر غزواته كانت تلك التي بدأها في ٢٤ جمادى الآخرة ٣٨٧ هـ بغزو جليقية، حيث بدأ بغزو قورية ثم بازو وقلمرية، وفي الطريق انضمت إليه إليها قوات مناطق الثغور والكونتات المحليين بقواتهم الذين آثروا تجنب مواجهة جيشه، كما صاحبه أسطول بحري كان المنصور قد أمر ببنائه في قصر أبي دانس. فاجتاح المنصور بجيشه جليقية، حتى بلغ

مدينة شنت ياقب التي بها ضريح القديس يعقوب بن زبدي وهي من الأماكن المقدسة عند مسيحيي الغرب، فبلغها في ٢ شعبان وقد وجد أهلها قد غادروها، فأمر بهدم المدينة ما عدا الضريح، واستولى على كنوزها، ثم بعث السرايا للمناطق المجاورة والتي تابعت مسيرها حتى وصلت إلى شاطيء الأطلسي عند مدينة قرجيطة، ثم توجّه جنوبًا لغزو أراضي برمودو الثاني ملك ليون، وعند لميقةسمح لحلفائه من الكونتات المسيحيين بالعودة إلى بلادهم بعد أن أغدق عليهم عطاياه، وعاد هو إلى قرطبة ومعه آلاف الأسرى والغنائم.

وفي عام ٣٩٠ هـ، تحالف أمراء من البشكنس وقشتالة وليون بقيادة سانشو غارسيا كونت قشتالة على قتال المنصور والتفاني في ذلك، فسار المنصور عبر أراضي قشتالة لقتالهم، فعسكر التحالف في صخرة جربيرة وهي موقع وعر وحصين، فوافاهم المنصور إلى تلك المنطقة، والتقى الجيشان في ٢٤ شعبان ٣٩٠ هـ، وبادر سانشو بالهجوم على ميمنة.وميسرة جيش المنصور اللتان أصابهما الخلل ولولا ثبات القلب بقيادة ولدي المنصور عبد الملك وعبد الرحمن وجنودهما من البربر لانهزم المسلمون، الذين استطاعوا استيعاب الهجوم وردوه بهجوم عكسي تحقق به النصر للمسلمين، وقد خسر المسلمون في معركة صخرة جربيرة ٧٠٠ قتيل. لم يكتف المنصور بذلك، فواصل هجومه حتى اقتحمبرغش عاصمة قشتالة، ثم هاجم أراضي نافارا حتى أشرف على عاصمتهم بنبلونة، ثم رجع إلى قرطبة بعد أن أمضى ١٠٩ يوم في تلك الحملة العسكرية.

وفاته

توفي الحاجب المنصور في ٢٧ رمضان ٣٩٢ هـ في مدينة سالم وهو عائد من إحدى غزواته على برغش، التي أصيب فيها بجروح، وكان قد أوصى بأن يدفن حيث مات، كان يشتكي علة النقرس. وقد ترك المنصور من الولد اثنين عبد الملك وعبد الرحمن، غير ابنه

عبد الله الذي قتله عام ٣٨٠ هـ. وقد ذكر لنا المؤرخون أربع من زوجاته على الأقل، وهن أسماء بنت غالب الناصري، والذلفاء أم ولده عبد الملك وتريسا بنت برمودو الثاني ملك ليون، وأوراكا ابنة سانشو الثاني ملك نافارا التي تزوجها عام ٣٧١ هـ، وأسلمت وسمّاها المنصور "عبدة" وهي أم ولده عبد الرحمن. وقد ترك المنصور من المال ٥٤ بيتًا في مدينته الزاهرة، وقد بلغت غزواته التي غزاها بنفسه ٥٧ غزوة، لم يهزم في أحدها قط.

وقد خلفه في مناصبه ولده عبد الملك الذي سار على نهج أبيه إلى أن توفي عام ٣٩٩ هـ، فخلفه أخوه عبد الرحمن الذي لم تدم فترته طويلاً حيث دخلت الأندلس في عهده في فترة من الاضطرابات بدأت بمقتله، واستمرت لأعوام وانتهت بسقوط الدولة الأموية في الأندلس وقيام ممالك الطوائف.

أعماله

العمارة

في عام ٣٦٨ هـ، وفي إطار سعيه في استكمال استقلاليته في حكم الأندلس، بدأ الحاجب المنصور في بناء مدينته الزاهرة والتي نقل إليها دواوين الحكم وبنى فيها قصرًا لإقامته، بالغ في فخمته حتى كان استهلاك قصره يوميًا ١٢.٠٠٠ رطل من اللحم غير الطيور والأسماك، وقد استغرق بناء المدينة نحو عامين. وفي عام ٣٧٠ هـ، انتقل إليها المنصور هو وخاصته ومن ثمّ العامة، وشحنها بالأسلحة، وأقطع ما حولها للوزراء والقادة وكبار رجال الدولة حتى اتصل عمرانها بأرباض قرطبة، وعمّتها الحركة وانتشرت بها الأسواق. كما أرسل إلى العمال في الأندلس والمغرب بحمل أموال الجباية إليها.

وفي عام ٣٧٧ هـ، أضاف الحاجب المنصور توسعة جديدة في شرقي المسجد الجامع بقرطبة، حتى بلغت أعمدة المسجد ١٤١٧ سارية، كما زاد من إنارته بإضافة الإنارة بالشمع مع ما كان عليه من الإنارة بالزيت، وقد حرص على أن يعوّض من تُؤخذ داره

لتوسعة المسجد بأضعاف ما يطلب من المال، وإن بالغ في ذلك. فيُروى أن امرأة كانت تسكن في بيت فيه نخلة بجوار المسجد دخل في نطاق التوسعة الجديدة، قد أبت صاحبته أن تبيعه إلاّ إذا جُعل لها منزل آخر فيه نخلة كالذي تملكه، فأمر المنصور بشراء بيت لها فيه نخلة كما أرادت، حتى ولو أتى ذلك على بيت المال، ثم أضاف بيتها إلى حدود المسجد. وفي عام ٣٨٧ هـ، بدأ في تجديد قنطرة قرطبة، وانتهى منها في عام ٣٨٩ هـ، وأنفق عليها ١٤٠.٠٠٠ دينار، كما أضاف قنطرة أخرى على نهر شنيل. كما اتسعت قرطبة في عهده حيث قدّر إحصاء دواوين دولته عدد دور قرطبة وأرباضها في عهده ٢١٣.٠٧٧ دار للعامة، و ٦٠.٣٠٠ دار للأكابر والوزراء والكتّاب والقادة والحاشية، إضافة إلى ٨٠.٤٥٥ حانوت.

الجيش

اهتم المنصور بالجيش، وبالغ في الاعتماد على البربر ومرتزقة الإسبان النصارى فيه، حتى بلغ عدد الفرسان البربر القادمين من المغرب في حرس الديوان ٣.٠٠٠ فارس إضافة إلى ٢.٠٠٠ من العبيد السود. كما وصل جملة الفرسان المرتزقة وقت السلم ١٢.١٠٠ فارس، إضافة إلى حرسه الخاص الذين بلغوا ٦٠٠ رجل، وجنده المشاة الذين كانوا ينتظمون في حملاته والذين بلغ عددهم ٢٦.٠٠٠ جندي، وفي وقت الحملات العسكرية، يزيد الفرسان حتى بلغوا أحيانًا ٤٦.٠٠٠ فارس والمشاة إلى ١٠٠.٠٠٠ رجل. مما دعاه في آخر عهده للاستغناء عن التجنيد الإجباري في حملاته، والاكتفاء على الجنود النظاميين. هذا غير ٤.٠٠٠ جمل يستخدمها الجيش في حمل العتاد والمؤن في الحملات العسكرية، كما اهتم بالأسطول فأمر بإنشاء دار جديدة لصناعة السفن في قصر أبي دانس.

اهتم المنصور أيضًا بتوفير مستلزمات جيشه، فأنشأ دور للصناعات الحربية التي تُمدّ جيشه بالسلاح والتي تعمل على مدار العام، فكانت دار الترّاسين تنتج ١٣.٠٠٠ ترس و

١٢.٠٠٠ قوس و ٢٠.٠٠٠ من النبل، و ٣.٠٠٠ خباء كل عام. كما بلغ استهلاك خيله نحو ألف مُدّ من الشعير كل عام،

الاقتصاد والأمن

نجح المنصور في إدارة شؤون البلاد الاقتصادية، وشهدت البلاد في عهده رواجًا اقتصاديًا وزاد دخل الدولة حتى بلغت الضرائب العادية في أواخر عصره ٤.٠٠٠.٠٠٠ دينار، بل وبلغت جباية قرطبة في عهده ٣.٠٠٠.٠٠٠ دينار. إضافة إلى رسوم المواريث وأموال السبي والغنائم. وقد أدت حالة الرواج الاقتصادي تلك، التي نتجت عن الغنائم والسبي إلى عزوف شباب الأندلس عن الزواج من الأندلسيات، لرخص ثمن الأسيرات من بنات الإفرنج.[٤] كما بلغ إجمالي الإنفاق العام للدولة نحو ٣.٥٠٠.٠٠٠ دينار. وبلغ إنفاق المنصور الشهري وحده على قصوره وقصور الخلافة ٢٠٠.٠٠٠ دينار، تزداد في وقت الحملات إلى ٥٠٠.٠٠٠ دينار في الشهر.

أما عن الحالة الأمنية، فقد استطاع المنصور أن يضبط أحوال البلاد الأمنية منذ بداية عهده بعدما ولاّه الخليفة على حاكمية قرطبة بعد عزل محمد بن الحاجب المصحفي، فأوكلها ابن أبي عامر إلى ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبي عامر الشهير بعسكلاجة، الذي أنهى حالة الانفلات الأمني التي سادت بداية خلافة الخليفة هشام المؤيد بالله، كما كان لميكافيليته من استخدام كل الوسائل المتاحة لكي يتمكن من السيطرة على السلطة، بما في ذلك سلاح الاغتيال وإزهاق الأرواح دون تردد أثره في اختفاء التمردات الداخلية في الأندلس طوال عهده تقريبًا.

علاقاته الدبلوماسية

لم يشهد عهد الحاجب المنصور نفس الزخم الذي ساد الحياة الدبلوماسية في عهد الخليفتين عبد الرحمن الناصر لدين الله والحكم المستنصر بالله، فلم تزد الزيارات

الدبلوماسية إلى بلاطه عن زيارة من قبل برمودو الثاني ملك ليون عام ٣٧٥ هـ، طلبًا لمعاونة المنصور لبرمودو في مقاومته لتمردات نبلاء مملكته الخارجين عليه، وقد أجابه المنصور لذلك. ونتج عن تلك الزيارة مصاهرة بزواج المنصور من تريسا ابنة برمودو لتوثيق أصر الصداقة بين الرجلين. وبعد هزائمه المتوالية أمام المنصور، اضطر سانشو الثاني ملك نافارا لطلب الصلح وزار بنفسه قرطبة في عدد من كبار رجال دولته في ٣ رجب عام ٣٨٢ هـ.

شخصيته

وصفه ابن الأثير قائلاً: «وكان شجاعًا، قوي النفس، حسن التدبير، وكان محبًا للعلماء، يُكثر مجالستهم ويناظرهم، وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه، وصنّفوا لها تصانيف كثيرة.» وقال عنه ابن خلدون:«وكان ذا عقل ورأي وشجاعة، وبصر بالحروب، ودين متين» وقال عنه ابن الخطيب: «وكان مهيبًا وقورًا، فإذا خلا كان أحسن الناس مجلسًا، وأبرّهم بمن يحضر منادمًا ومؤانسًا. وكان شديد القلق من التبسط عليه، والدالة والامتنان، لا يغفرها زلة، ولا يحلم عنها جريرة، ولم يكن يسامح في نقصان الهيبة، وحفظ الطاعة أحدًا من ولدٍ ولا ذي خاصة، دعاه ذلك إلى قتل ولده عبد الله بالسيف صبرًا بما هو معروف.» كما نقل محمد عبد الله عنان في كتابه "دولة الإسلام في الأندلس" عن المؤرخ الإسباني مننديث بيدال تعليقه على عصر المنصور قائلاً: «عاش الإسلام في إسبانيا أروع أيامه وأسطعها، وانتهى مسيحيي الشمال إلى حالة دفاع كانت دائمًا مقرونة بالمحن، ولاح كأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية الجزية والسلاح والأسرى والمجد للخلافة الأموية.» كذلك عُرف عنه كرمه وكثرة إنفاقه، فكانت مائدته منصوبة دومًا لمن يزور داره.

مع ما كان عليه من الهيبة والرهبة، فقد كان له حلم واحتمال. ويروى أنه خطّ بيده مصحفًا كان يحمله معه في أسفاره ويتبرك به، كما كان يجمع ما علق بوجهه من غبار

معاركه حتى تجمّعت له صُرة كبيرة أوصى أن تُدفن معه عند موته. اتصف المنصور أيضًا بالعدل حتى على أقرب الناس إليه. وكان يُكنّ حبًا واحترامًا للعلماء والأدباء، فكان مجلسه دائمًا بأهل العلم والأدب والشعر، كما كانت له هباته للأدباء والشعراء على ما يبدعونه، ولعل أشهرها إجازته لصاعد البغدادي بخمسة آلاف دينار عن كتابه "الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار"، وأمره له بأن يقرأه على الناس في مسجد الزاهرة. إلا أنه كان شديدًا على من يشتغل بالفلسفة أو الجدال أو التكلم في النجوم أو الاستخفاف بشيء من أمور الشريعة، بل وحرق ما كان في مكتبة الحكم من كتب الدهرية والفلاسفة.

وقد روى ابن عذاري عن نجدته للمسلمين أنه بلغه وجود أسيرات مسلمات لدى غارسيا سانشيز الثاني ملك نافارا رغم أنه كانت بينهما معاهدة تنص على ألا يستبقي غارسيا لديه أسرى من المسلمين، فأقسم أن يجتاح أرضه لنكثه بالعهد، ولما خرج المنصور بجيشه، وبلغ غارسيا خروجه. أسرعت رسل غارسيا تستفسر عن سبب الغزو، فأعلموهم بخبر الأسيرات المسلمات، فردّهن غارسيا معتذرًا بعدم علمه بهن، وبأنه هدم الكنيسة التي كانت تحتجزهن كاعتذار منه على ذلك، فقبل منه المنصور ذلك وعاد بالأسيرات.



المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة

١. شبارو، عصام محمد .(1987) *تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين* .بيروت-لبنان :دار مصباح الفكر. صفحة ٥١.

٢. رسائل ابن حزم٢ ١٩٨٧ p. 63 .

٣. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 198 .

٤. Geography at about.com

٥. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 507 .

٦. ابن الأثير ج٤ ٢٠٠٨ p. 273 .

٧. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب قصة الإسلام – مختصر قصة الأندلس

٨. قصة الإسلام – قصة الأندلس – عهد الولاة

٩. مؤلف مجهول ١٩٨٩ p. 50-51 .

١٠. مؤلف مجهول ١٩٨٩ p. 56 .

١١. ابن الأثير ج٥ ٢٠٠٨ p. 121-126 .

١٢. السامرائي وذنون ومطلوب ٢٠٠٠ p. 90 .

١٣. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 40 .

١٤. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب ت قصة الإسلام – عبد الرحمن الداخل صقر قريش

١٥. مؤلف مجهول ١٩٨٩ p. 72 .

١٦. مؤلف مجهول ١٩٨٩ p. 80-83 .

١٧. السامرائي وذنون ومطلوب ٢٠٠٠ p. 101 .

١٨. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 76-77 .

١٩. ابن الأبار ١٩٨٥ p. 44 .

٢٠. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 87-88 .

٢١. العذري- p. 29-35 .

٢٢. العذري- p. 64-65 .

٢٣. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 143-133 .

٢٤. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 101-105 .

٢٥. مرسي الشيخ ١٩٨١ p. 103-106 .

٢٦. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 96-97 .

٢٧. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 344 .

٢٨. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 425-426 .

٢٩. رسائل ابن حزم ج٢ ١٩٨٧ p. 63 .

٣٠. مرسي الشيخ ١٩٨١ p. 113-114 .

٣١. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 185-189 .

٣٢. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 506 .

٣٣. تعدى إلى الأعلى ل:' ~ المقري ج١ ١٩٦٨ p. 395 .

٣٤. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 517-520 .

٣٥. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 268-269 .

٣٦. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 537-539 .

٣٧. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 278 .

٣٨. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 279 .

٣٩. دوزي ج٢ ١٩٩٤ p. 157 .

٤٠. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 625 .

٤١. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 632-634 .

٤٢. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 646-647 .

٤٣. دوزي ج٢ ١٩٩٤ p. 190-191 .

٤٤. دوزي ج٢ ١٩٩٤ p. 223 .

٤٥. مؤلف مجهول ١٩٨٩ p. 131 .بيعة محمد بن عبد الرحمن

٤٦. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 61 .بيعة هشام بن الداخل

٤٧. ابن حزم (الجمهرة) ١٩٨٢ p. 98 .

٤٨. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 373 .بيعة عبد الرحمن الناصر

٤٩. سالم الخلف ١٩٨٠ p. 133-137 .

٥٠. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 158 .بيعة عبد الرحمن الناصر

٥١. سالم الخلف ١٩٨٠ p. 417 .

٥٢. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 685 .

٥٣. مؤنس ٢٠٠٢ p. 571-572 .

٥٤. زيتون ١٩٩٠ p. 264 .

٥٥. David Koeller. "Charlemagne Invades Spain". اطلع عليه بتاريخ ١-٥-٢٠١٣.

٥٦. عنان ج١ ١٩٩٧ p. 176 .

٥٧. Martínez Díez، Gonzalo (2005). *El Condado de Castilla (711-1038): La historia frente a la leyenda* (باللغة Spanish). 2. Valladolid: Marcial Pons Historia. صفحة ١١٢. ISBN 978-84-95379-94-8. اطلع عليه بتاريخ 18 July 2012.

٥٨. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 64-65 .

٥٩. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 87-88 .

٦٠. عنان ج١ ١٩٩٧ p. 573 .

٦١. عنان ج١ ١٩٩٧ p. 65 .

٦٢. المقري ج١ ١٩٦٨ p. 341 .

٦٣. سالم الخلف ١٩٨٠ p. 489 .

٦٤. سالم الخلف ١٩٨٠ p. 497 .

٦٥. نعنعي ١٩٨٦ p. 464 .

٦٦. عنان ج١ ١٩٩٧ p. 200 .

٦٧. ابن القوطية ١٩٨٩ p. 82 .

٦٨. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 124 .

٦٩. عنان ج١ ١٩٩٧ p. 311 .

٧٠. نعنعي ١٩٨٦ p. 464-465 .

٧١. تعدى إلى الأعلى ل:٬ ٮ صنعة الكلام – اقتصاد الأندلس: الزراعة والصناعة والتجارة – عادل بشتاوي .

٧٢. المقري ج١ ١٩٦٨ p. 330-331 .

٧٣. المقري ج٣ ١٩٦٨ p. 346 .

٧٤. ابن دحية p. 138-146 .

٧٥. أزهار الرياض ج٢ ١٩٤٠ p. 259 .

٧٦. عنان ج١ ١٩٩٧ p. 456 .

٧٧. نعنعي ١٩٨٦ p. 376 .

٧٨. نعنعي ١٩٨٦ p. 374-376 .

٧٩. عنان ج١ ١٩٩٧ p. 456-458 .

٨٠. عنان ج١ ١٩٩٧ p. 491 .

٨١. Cantera Burgos 1966. p. 363

٨٢. Vallvé Bermejo 1992. p. 177

٨٣. Hajji 1970. p. 75

٨٤. عنان ج١ ١٩٩٧ p. 490 .

٨٥. عنان ج١ ١٩٩٧ p. 583 .

٨٦. دويدار ١٩٩٤ p. 137 .

٨٧. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب الدغلي ١٩٨٤ p. 30 .

٨٨. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 691-692 .

٨٩. بالينثيا ١٩٥٥ p. 431-433 .

٩٠. دويدار ١٩٩٤ p. 145-146 .

٩١. بالينثيا ١٩٥٥ p. 439 .

٩٢. دويدار ١٩٩٤ p. 157-158 .

٩٣. دويدار ١٩٩٤ p. 174 .

٩٤. الموسوعة العربية – ابن مسرَّة (محمد بن عبد الله)

٩٥. الدغلي ١٩٨٤ p. 31 .

٩٦. بالينثيا ١٩٥٥ p. 394-395 .

٩٧. ابن بشكوال ١٩٨٩ p. 66 .

٩٨. ابن بشكوال ١٩٨٩ p. 593 .

٩٩. رسائل ابن حزم ج٢ ١٩٨٧ p. 178 .

١٠٠. دويدار ١٩٩٤ p. 126-134 .

١٠١. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب ت ث ج ح خ د مكونات المجتمع الأندلسي ومكانة أهل الذمة فيه

١٠٢. Lévi- Provençal. Histoire de L'Espagne musulmane ، Paris، 1950، T. 3 PP 72-74

١٠٣. بالينثيا ١٩٥٥ p. 488-489 .

١٠٤. مؤنس ٢٠٠٢ p. 400 .

١٠٥. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 30 .

١٠٦. ابن الأبار ج١ ١٩٨٥ p. 61-62 .

١٠٧. دويدار ١٩٩٤ p. 19 .

١٠٨. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 6 .

١٠٩. مؤنس ٢٠٠٢ p. 420 .

١١٠. مؤنس ٢٠٠٢ p. 429 .

١١١. ابن القوطية ١٩٨٩ p. 40 .

١١٢. ابن الأبار ج٢ ١٩٨٥ p. 375 .

١١٣. دويدار ١٩٩٤ p. 50-54 .

١١٤. عنان ج١ ١٩٩٧ p. 517-518 .

١١٥. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 76-77 .

١١٦. ابن القوطية ١٩٨٩ p. 31 .

١١٧. مؤنس ٢٠٠٢ p. 461 .

١١٨. Mozarabic language

١١٩. مكونات المجتمع الأندلسي ومكانة أهل الذمة فيه – أحمد شحلان

١٢٠. دويدار ١٩٩٤ p. 41 .

١٢١. مؤنس ٢٠٠٢ p. 464 .

١٢٢. دويدار ١٩٩٤ p. 43 .

١٢٣. دويدار ١٩٩٤ p. 44.

١٢٤. دويدار ١٩٩٤ p. 48.

١٢٥. ابن عبد ربه لؤي خليل الموسوعة العربية

١٢٦. بالينثيا ١٩٥٥ p. 169-172.

١٢٧. ثقافة وفن: السرد الحلمي في رسالة التوابع والزوابع

١٢٨. الأدب الأندلسي

١٢٩. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 454-455.

١٣٠. بالينثيا ١٩٥٥ p. 185.

١٣١. زكريا عناني ١٩٩٩ p. 42.

١٣٢. الزركلي ج٦ ٢٠٠٢ p. 311-312.

١٣٣. إحسان عباس - تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ج٢

١٣٤. بالينثيا ١٩٥٥ p. 42.

١٣٥. المقري ج٧ ١٩٦٨ p. 6.

١٣٦. زكريا عناني ١٩٩٩ p. 167.

١٣٧. زكريا عناني ١٩٩٩ p. 169-170.

١٣٨. بالينثيا ١٩٥٥ p. 193.

١٣٩. الزركلي ج٤ ٢٠٠٢ p. 121.

١٤٠. بالينثيا ١٩٥٥ p. 266.

١٤١. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 281-282.

١٤٢. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 462.

١٤٣. ابن الأبار ج١ ١٩٨٥ p. 201.

١٤٤. ابن الأبار ج١ ١٩٨٥ p. 124-126.

١٤٥. ابن الأبار ج١ ١٩٨٥ p. 221 .

١٤٦. ابن حزم١ ١٩٨٢ p. 95 .

١٤٧. ابن الفرضي ج١ ١٩٦٦ p. 279 .

١٤٨. ابن حيان القرطبي ١٩٩٤ p. 262 .

١٤٩. ابن الأبار ج١ ١٩٨٥ p. 206 .

١٥٠. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب أمين ج٣ ٢٠٠٩ p. 302 .

١٥١. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب|Harvnb عنان الآثار الأندلسية= Ref |الآثار الأندلسية|١٩٩٧}}p=20|

١٥٢. المقري ج١ ١٩٦٨ p. 545-546 .

١٥٣. ابن القوطية ١٩٨٩ p. 88 .

١٥٤. المقري ج١ ١٩٦٨ p. 561 .

١٥٥. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 234 .

١٥٦. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 287 .

١٥٧. المقري ج١ ١٩٦٨ p. 549-550 .

١٥٨. عنان الآثار الأندلسية ١٩٩٧ p. 22 .

١٥٩. The Literature of Al-Andalus (The Cambridge History of Arabic Literature). New Ed ed. New York: Cambridge University Press. 161.

١٦٠. Historic Centre of Cordoba

١٦١. عنان الآثار الأندلسية ١٩٩٧ p. 47 .

١٦٢. دويدار ١٩٩٤ p. 219 .

١٦٣. عنان الآثار الأندلسية ١٩٩٧ p. 49 .

١٦٤. عنان الآثار الأندلسية ١٩٩٧ p. 88-89 .

١٦٥. دويدار ١٩٩٤ p. 221 .

١٦٦. عنان الآثار الأندلسية ١٩٩٧ p. 36 .

١٦٧. Barrucand. Marianne & Bednorz. Achim.*Moorish Architecture in Andalusia*. Taschen. 2002. p. 61

١٦٨. السيد سالم ١٩٧٧ p. 96 .

١٦٩. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 298 .

١٧٠. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 82 .

١٧١. Ruggles ، D. Fairchild (2008). *Islamic Gardens and Landscapes.* University of Pennsylvania Press. صفحات ١٥٢–١٥٣. ISBN 0812240251 .

١٧٢. المقري ج٣ ١٩٦٨ p. 216 .

١٧٣. دويدار ١٩٩٤ p. 268 .

١٧٤. دويدار ١٩٩٤ p. 267 .

١٧٥. المقري ج٣ ١٩٦٨ p. 130 .

١٧٦. المقري ج٣ ١٩٦٨

١٧٧. المقري ج١ ١٩٦٨ p. 350 .

١٧٨. المقري ج٣ ١٩٦٨ p. 140 .

179. Menocal. María Rosa. Raymond P. Scheindlin. Michael Anthony Sells (eds.) (2000)، *The Literature of Al-Andalus*،Cambridge University Press

180. Salma Khadra Jayyusi and Manuela Marin (1994). *The Legacy of Muslim Spain*. p. 117. Brill Publishers. ISBN 90-04-09599-3

١٨١. دويدار ١٩٩٤ p. 275 .

182. van Sertima ،Ivan (1992)، *The Golden Age of the Moor*، Transaction Publishers، ١٧ صفحة ،ISBN 1560005815

١٨٣. *(Farmer 1978. p. 137)*

١٨٤. عنان دولة الإسلام ج١ ١٩٩٧ p. 432-433 .

١٨٥. البشري ١٩٩٧ p. 309 .

١٨٦. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 292 .

١٨٧. ابن أبي أصيبعة ج٢ ١٨٨٢ p. 47-48 .

188. Abū Al-Qāsim Khalaf Ibn 'abbās Al-Zahrāwī. Albucasis on Surgery and Instruments. Berkeley: University of California Press. 1973. (10. 14 & 90)

١٨٩. البشري ١٩٩٧ p. 353 .

190. Ahmad ،Z. (St Thomas' Hospital) (2007) ،"Al-Zahrawi - The Father of Surgery"، *ANZ Journal of Surgery*، 77 (Suppl. 1): A83، doi:10.1111/j.1445-2197.2007.04130_8.x

191. Holmes-Walker ،Anthony (2004). *Life-enhancing plastics : plastics and other materials in medical applications*. London: Imperial College Press. ١٧٦ صفحة. ISBN 1-86094-462-0.

192. Khaled al-Hadidi (1978). "The Role of Muslem Scholars in Oto-rhino-Laryngology". *The Egyptian Journal of O.R.L.* 4 (1). p. 1-15.

(cf. Ear. Nose and Throat Medical Practice in Muslim Heritage. Foundation for Science Technology and Civilization.)

193. مظهر ٢٠٠٢. p. 80

194. Vernet ،J. (2008) [1970-80]. "Ibn Juljul. Sulaymān Ibn Ḥasan". *Complete Dictionary of Scientific Biography.* Encyclopedia.com. روابط خارجية في |= (مساعدة)

195. Sarton ،George (1927). *Introduction to the History of Science.* 1(part 2). Carnegie Institution of Washington. صفحات ٦٦٨–٩.

196. البشري ١٩٩٧. p. 365-366

197. John H. Lienhard (2004). "'Abbas Ibn Firnas". *The Engines of Our Ingenuity.* حلقة ١٩١٠ http://www.uh.edu/engines/epi1910.htm |transcripturl= تحتاج عنوانا (مساعدة). KUHF-FM Houston.

198. Lynn Townsend White. Jr. (Spring. 1961). "Eilmer of Malmesbury. an Eleventh Century Aviator: A Case Study of Technological Innovation. Its Context and Tradition". *Technology and Culture* **2** (2). p. 97-111 [100f.]

199. Lynn Townsend White. Jr. (Spring. 1961). "Eilmer of Malmesbury. an Eleventh Century Aviator: A Case Study of Technological Innovation. Its Context and Tradition". *Technology and Culture* **2** (2). p. 97-111 [100]:

200. "Ibn Firnas was a polymath: a physician. a rather bad poet. the first to make glass from stones (quartz). a student of music. and inventor of some sort of metronome."

٢٠١. المقري ج٣ ١٩٦٨ p. 374 .

٢٠٢. البشري ١٩٩٧ p. 381 .

٢٠٣. دويدار ١٩٩٤ p. 343 .

٢٠٤. دويدار ١٩٩٤ p. 344 .

٢٠٥. تعدى إلى الأعلى ل:' ~ حتاملة ٢٠٠٠ p. 1029-1042 .

٢٠٦. دويدار ١٩٩٤ p. 345 .

٢٠٧. المقري ج١ ١٩٦٨ p. 197 .ذكر المقري في حديثه عن سرقسطةأنه» :لا يتسوّس فيها شيء من الطعام ولا يعفن، ويوجد فيها القمح من مائة سنة، والعنب المعلّق من ستة أعوام، والفول والحمص من عشرين سنة«.

٢٠٨. حتاملة ٢٠٠٠ p. 1044 .

٢٠٩. المقري ج١ ١٩٦٨ p. 201-202 .

٢١٠. المقري ج١ ١٩٦٨ p. 159 .

٢١١. دويدار ١٩٩٤ p. 350 .

٢١٢. دويدار ١٩٩٤ p. 354-356 .

٢١٣. حتاملة ٢٠٠٠ p. 1045 .

٢١٤. المقري ج١ ١٩٦٨ p. 162 .

٢١٥. حتاملة ٢٠٠٠ p. 1047-1050 .

٢١٦. دويدار ١٩٩٤ p. 360 .

٢١٧. دويدار ١٩٩٤ p. 362 .

٢١٨. دويدار ١٩٩٤ p. 365 .

٢١٩. يا بيروت - الدور الاقتصادي في الأندلس

٢٢٠. دويدار ١٩٩٤ p. 371 .

٢٢١. ابن عذاري ج٢ ١٩٨٠ p. 231-232 .



الفهرس


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





د. حليم خليف الكاني

مختصر
تاريخ الدولة الأمويَّة في الأندلس



الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS & DISTRIBUTORS

عمّـان، شـارع الملكـة رانيـا،
عمـارة البيجـاوي (69)، طابـق 3
نقال: 720 7162 79 962+
alaan.publish@gmail.com


9 789957 698478